الطبعة
3

عمر طاهر

إذاعة الأغاني

سيرة شخصية للغناء



إذاعة الأغاني

عمر طاهر

إذاعة الأغاني





لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر: www.facebook.com/alkarmabooks

طاهر، عمر.
إذاعة الأغاني: سيرة شخصية للغناء/ عمر طاهر – القاهرة: الكرمة، ٢٠١٥.
٢١٦ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467392
طاهر، عمر – المذكرات.
أ – المطربون والمطربات.
ب – العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٣٥٥ / ٢٠١٥

٤٦٨١٠٩٧٥٣

تصميم الغلاف: كريم آدم

بينما تجري الحياة.. ثمة أغنية ما تدور في الخلفية.

بينما تدور أغنية ما.. ثمة حياة تجري في الخلفية.

برنامج الإذاعة

فاكراك

نجاة علي

كلمات: إمام الصفطاوي

ألحان: أحمد صدقي

(١)

في الطريق إلى عمة صديقي في قريتها البعيدة كنت أحاول أن أفهم لماذا أسرتني سوريا بهذه القوة، لدرجة أنني جعلتها محطة إجبارية عند أي سفر. الطريق إلى طهران، بيروت، إسلام أباد، كراتشي، لا بد أن يمر بدمشق. أستقر هناك يومين، ثم أغادر باتجاه رحلة العمل، ثم أعود إليها ومنها إلى القاهرة. هذه المرَّة كانت الرحلة خالصة لوجه الشام.

كانت الخطة أن نقضي يومًا في بيت عمة صديقي؛ بيتها الريفي الموجود في إحدى القرى الجبلية، حيث تعيش هناك حياتها بلا زوج أو أولاد. تحركنا عندما أخبرتنا العمة أنها جاهزة لاستقبالنا.

كان الطريق مخيفًا.

نتحرك بسيارة مستأجرة على منحنيات صاعدة تدور حول جبال خضراء، منحنيات ضيقة تسمح بمرور سيارة واحدة. أطل من شباك السيارة فأرى الوادي بعيدًا. كنا مُعلَّقين في الهواء تقريبًا. صديقي يحتسي البيرة، ويرفع صوت جورج وسوف في كاسيت السيارة، ويقود وهو في كامل انتشائه. كنا في خطر حقيقي، تفرغت للدعاء أن نصل سالمين، كان شرط السلامة ألا تصادفنا سيارة متهورة في الاتجاه المعاكس، وأن تتولى الملائكة قيادة السيارة بالنيابة عن صديقي.

كانت ضربات قلبي تتسارع، ولم تهدأ إلا عندما دخلنا ليلًا قرية أرضها مستوية وشوارعها عريضة تطل رائحة الياسمين من كل ركن فيها.

استقبلتنا خادمة العمة لأن العمة كانت قد أخلدت إلى النوم. كانت ودودة وهادئة. قالت إنها أعدت العشاء، وعلينا أن نأكل وننام. كانت العاشرة مساء، وكان موعد النوم الإجباري مفاجأة. قال صديقي هذا لمصلحتك لأننا سنصحو جميعًا في الرابعة حسب نظام عمته.

كانت إضاءة البيت ضعيفة، وكانت غرفة نومي أنا وصديقي في الطابق الثاني ذات سقف عالٍ وشرفة واسعة تطل على حديقة المنزل، ولم تكن هناك فرصة لعمل أي شيء سوى الكلام حتى نقع في النوم.

(٢)

استيقظت، ونظرت إلى الساعة، كانت السابعة والنصف. قلت لنفسي لقد حصلت على بعض امتيازات الضيوف، خصوصًا أن صديقي غير موجود، يبدو أنه خضع لقواعد المنزل واستيقظ مبكرًا.

كان هناك صوتان يسيطران على المشهد: صوت العصافير القادم من خلف باب الشرفة المغلق، كان واضحًا أنها كثيرة العدد، رائقة المزاج. الصوت الثاني كان لأغنية قادمة من الطابق السفلي، ظللت أركز فيها محاولًا أن أعرف مَن التي تغني، ولم أحصل على إجابة أكيدة: ليلى مراد؟ لا. سعاد محمد؟ لا أعتقد. حورية حسن؟ مستحيل.

الأغنية جميلة، أسرتني قبل أن أغادر فراشي، بها خليط من موسيقى عبد الوهاب على القصبجي على السنباطي، لكن الأكيد أنه لحن متميز لكلمات لا تخلو من لطافة.

وإن رُحت مرَّة تزور

عش الهوى المهجور

سلِّم على قلبي

كانت المطربة المجهولة تعيد هذا المقطع حتى ارتويت،

فقمت واتجهت ناحية الشرفة وكلي حماس، دفعت «الشيش» بكلتا يدي بقوة حتى ارتطم بالحائط، فرأيت عشرات العصافير التي كانت تغرد وهي تفر مذعورة من الشجرة المواجهة للشرفة باتجاه السماء، محدثة جلبة ظاهرها التحليق وباطنها الفزع.

سمعت صوتًا قادمًا من الحديقة يقول:

ـ يا حيوااااان!

لم يأتِ في بالي أنني المقصود.

ألقيت نظرة، فوجدت سيدة خمسينية ترتدي نظارة طبية، وشعرها الذي اختلط بياضه بلون الحناء قد عقد على هيئة ضفيرتين، ترتدي جلابية بيت خضراء بها مربعات من ألوان أخرى فاتحة، وتمسك خرطوم الماء وتسقي شجيرات الياسمين، عرفت أنها العمة.

قبل أن أفتح فمي قالت لي وهي جادة:

ـ فيه حد يدخل على العصافير هيك من دون استئذان؟!

أضاعت المفاجأة كل الكلام. قبل أن أجد جملة واحدة، وجدت وجهها وقد غادرته ملامح غضب الأمهات واستقرت مكانها ابتسامة صادقة قائلة:

ـ انزل يلَّا علشان تتروق.

(٣)

كانت الأغنية في نهايتها عندما هبطت إلى صالة البيت، لكن المقطع المميز كان لا يزال يرن في أذني.

كانت العمة تقترب بصينية تداخلت فيها الألوان بطريقة تفتح النِّفس. حاولت أن أحمل عنها الصينية على سبيل الذوق، لكنها رفضت طالبة مني أن أتبعها إلى الخارج.

في الطريق سألتها عن اسم المطربة التي انتهت أغنيتها للتو. قالت بسرعة:

ـ نجاة علي.

في مدخل الحديقة كانت «بردعة حمار» مزركشة مُعلَّقة على الحائط، كانت فاتنة، فتوقفت أمامها لثوانٍ أتأملها. لاحظت العمة، فقالت لي:

ـ لقد صنعتها وعلَّقتها أمامي هنا لأُذكِّر نفسي بكل ثانية كنت فيها حمارة.

عندما وضعت الصينية كان باديًا في قبضة يدها شريط دواء. سألتها إن كان للصداع، فطلبت مني أن أتناول إفطاري أولًا على وعد بعدها أن «تسوي لي قهوة» ستُطير عقلي بكل ما فيه من صداع وأوساخ وهلاوس. هكذا قالت.

بدأت أتناول طعامي بجوع حقيقي. قالت لي:

ـ لو تزوجتُ وأنجبتُ ولدًا سأسميه «عمر».

فتحت المجاملة شهيتي أكثر. ثم أردفت قائلة:

ـ لكن، فات زمن الإنجاب!

صمتُّ أمام الملاحظة القاسية، فقالت ضاحكة:

ـ ولكن، زمن الزواج نفسه لم يفت!

وضحكت بقوة، ثم عادت من الضحكة إلى الغناء:

وإن رُحت مرَّة تزور

عش الهوى المهجور

سلِّم على قلبي

قامت طالبة مني ألا أخجل من طلب المزيد. سألتها عن صديقي، فقالت إنها أرسلته لبيع العسل. قبل أن أستوضحها قالت:

ـ العسل الموجود أمامك من إنتاجي، كل شيء هنا أصنعه بنفسي، لم أعد بحاجة إلى العالم، العالم هو الذي صار في حاجة لي، سأذهب لأعد لك القهوة.

بينما تغادر الحديقة باتجاه الداخل، كان سرب العصافير الذي أفزعته صباحًا يعود لاحتلال الشجرة الكبيرة. نظرت إليَّ قائلة:

ـ فلتعتذر لهم.

وقفت وقلت:

ـ آسف!

فضحكت وغابت داخل المنزل.

بعد ثوانٍ كان صوت الأغنية نفسها يأتي من داخل المنزل من جديد.

(٤)

رجعتْ بعد قليل تحمل صينية القهوة، وخلفها خادمتها تحمل طبقًا كبيرًا وفوقه صينية أخرى عليها أدوات مطبخ.

شكرتُ الخادمة على عشاء ليلة أمس بينما تضع على الأرض الطبق الكبير المليء بثمار الباذنجان التي لاحظت أنها قصيرة بشكل لافت للنظر. قالت العمة إن «أم صليب» شريكتها في الحياة منذ الطفولة، تقضي مع زوجها وأولادها أسبوعًا كل شهر في المدينة ثم تعود. سألتني أم صليب متى سأغادر القرية، فنهرتها العمة على قلة ذوقها، دافعت عن نفسها قائلة إنها تتمنى أن تطول إقامتي حتى ينضج «المكدوس» فأتذوق حلاوته، هنا ضحكت العمة وقالت:

ـ حتى لو غادر مبكرًا فسأعطيه بعضًا منه.

باذنجان نصف مخلل محشو بالمكسرات ومنقوع في زيت الزيتون. والآن مطلوب مني أن أساعدها في تحضير المكدوس بينما أرشف قهوتها الطيبة. كانت مهمة سهلة أن أقشر رأس ثمرة الباذنجان لأزيل عنها العرق الطويل الذي كانت تتغذى

منه، وأضع الثمرة أمامها على الصينية فتشقها بمهارة لتعد مكانًا للحشو.

طلبت العمة مني أن أخمن سببًا لعدم زواجها. وكأحمق معجب بفطنته قلت من دون تردد:

ـ صدمة عاطفية.

ثم تمنيت لو أنني قد نسيت الكلام قبل أن أنطق بجملة وقحة مثل تلك. ابتسمت العمة قائلة:

ـ لقد أنهيت اللعبة مبكرًا، هي صدمة عاطفية ولكنها لم تحدث لي، كانت ضحيتها واحدة من أقرب صديقاتي، غرر بها ابن الجيران ثم هرب إلى المجر، فانتحرت، وحزنت عليها بما يكفي للتصميم على عدم الوقوع في فخ الحب. مرَّة واحدة كسرت هذا الصيام، وأحببت الرجل الذي أسس مزرعة النحل على حدود المزرعة. طلب الزواج مني ورفض والدي أن أتركه لأعيش بعيدًا في اللاذقية. أقنعني بأن أهرب معه، طاوعته، وفي منتصف الطريق تعطلت سيارته، مشينا قليلًا حتى وجدنا سيارة نصف نقل، فصعد هو إلى جوار سائق السيارة في الكابينة وطلب مني أن أجلس في مؤخرة السيارة المكشوفة. شعرت بغصة، كان الوضع مُهينًا: هو يجلس إلى جوار السائق يسمع الأغاني ويُدخن ويضحك، وأنا أجلس فوق برميل وأسفل قدميَّ خراء الماعز! عندما توقفت السيارة في أقرب فرصة نزلت وجريت بأقصى سرعة، وعدت إلى بيت والدي سيرًا

على الأقدام. عندما وصلت وجدت أبي يجلس مكانك هنا يشرب قهوته مثلك، وضعت رأسي في الأرض وبدأت في البكاء، فنهرني قائلًا إنه لا يحب أن يرى رجلًا يبكي!

ضحكتُ على تعليق الأب، فضحكت العمة. سألتني:

ـ هل تعرف الخطأ الذي وقعتُ فيه؟

قلت لها:

ـ أن خالفتِ رغبة الأب.

قالت:

ـ رغبة الأب وُجدت لنخالفها. الخطأ أنني هربت مع مهندس نحل وهو رجلٌ حياته قائمة على «اللدغ»!

صبت لي القهوة من جديد، ونهرتني لأنني أقطع ثمرة الباذنجان أعمق مما ينبغي، وقالت لي:

ـ لا تتوقف عند حكايتي، عليك أن تُحب وتتزوج وتُنجب أطفالًا. ولا تتوقف عن أن تقدم لهم الكرم والتسامح ونكاتًا قديمة يضحكهم أنها تضحكك. هكذا يمكنك أن تصنع معهم تاريخًا، الطفل المؤدب هو الطفل الذي يمتلك تاريخًا منزليًّا يقوى به أينما حل.

قلت لها:

ـ لا أفكر في الزواج.

قالت لي:

ـ حمار أنت، ولا بد أن تضع بردعة مثل تلك في بيتك لتنظر

إليها كلما أعجبتك عزوبيتك!

دخل علينا صديقي بملامح تبشر بأن صفقة العسل قد نجحت.

عندما أخبر العمة بمبلغ البيع قبلته فرحة. أعطاها النقود ثم توقف قائلًا:

ـ لكن الرجل أجَّل دفعة قدرها ٣٥٠٠ ليرة، قال إنه سيسددها بعد العيد.

سألت العمة بجدية:

ـ أي عيد؟

قال الصديق:

ـ لا أعرف.

أخذت منه العمة النقود لتعدها وهي تقول:

ـ طبعًا، شخص متلك ما بيعرف الله ذاته هيعرف أعياد الله؟!

قبل أن تبدأ العمة في عد النقود لمحت وجومًا ما على وجهي، فابتسمت قائلة:

ـ يا رب تكون مبسوط معانا!

كنت كذلك بالفعل، وكنت أبحث عن كلمات أعبر بها عن سعادتي، فقلت لها:

ـ جدًّا. الحقيقة دي فرصة سعيدة.

كانت العمة قد أنهت عد النقود، ويبدو أنها تذكَّرت الدفعة المؤجلة، فنظرت إليَّ قائلة:

ـ الحقيقة دي فرصة أخت شرموطة.

(٥)

كانت نجاة علي تغني منذ طفولتها إلى أن اكتشفها أحدهم على هامش افتتاح الإذاعة المصرية، وكانت شريكة في هذا الحدث مع أم كلثوم وعبد الوهاب، وكانت صاحبة البطولة فى واحد من أوائل الأفلام السينمائية الغنائية فى مصر، «دموع الحب»، مع محمد عبد الوهاب، وغنت الأطلال ونجحت، إلا أن طموح أم كلثوم القديم في تقديم الأغنية لم يثنها عن غنائها بلحن جديد.

وقعت في غرام رجل أقنعها باعتزال كل هذا المجد فوافقت، واستقرت معه في مرسى مطروح، وبعد خمس سنوات كان الغرام قد ذبل فعادت إلى الغناء، وتزوجت مرَّة أخرى.

أخبرها الطبيب أن الولادة لن تكون طبيعية، كانت الجراحة القيصرية مجهدة وعسيرة جدًّا، خرجت منها نجاة علي وهي تعرف أنها لن تعود إلى الغناء من جديد، لأن العملية أثرت على صوتها وجعلت نفسها قصيرًا، فاعتزلت في بداية الخمسينيات.

تزوجت نجاة علي للمرَّة الثالثة والأخيرة، واستقرت في بيت جديد، ولكن بعد فترة وجدت أن جارهم الجديد هو حبيبها الأول الذي هجرت الفن من أجله وقد ذبل لونه تمامًا.

(٦)

عند الغداء طلبت العمة من صديقي أن يحضر لها شيئًا من غرفة الخزين لأن أم صليب مشغولة، فدخلت معه.

مرت وستمر على الواحد روائح كثيرة في حياته، لكن لن تظهر واحدة قادرة على محو ما استقر في وجداني في غرفة الخزين تلك. تذكرت رواية «العطر»، حيث البطل سفاح يصنع عطرًا من جلود ضحاياه، إلى أن صنع من جلود أجمل فتيات المدينة خليطًا ساحرًا، أسكرت نقطة واحدة منه، بلل بها منديله، أهل المدينة كلهم وهم يتابعون محاكمته.

مِمَّ صُنعت الرائحة في هذه الغرفة؟

سؤال صعب، فكل البرطمانات محكمة الغلق، لكن ما بداخلها أقوى من الزجاج، فامتزجت طيبة العسل الأبيض مع دفء المكدوس مع جدية أجولة الدقيق مع حدة النعناع المجفف مع دماثة الزبد الطبيعي مع غرور الزهورات (أوراق ورد مجففة لصناعة المشروبات) مع ألق حبات الجبن القديم مع بكارة حبات الجبن الطازج. غرفة نصف مظلمة يتسلل إليها الضوء من كوة عالية، أردت أن أخلع ملابسي كلها وأكمل حياتي هنا.. عاريًا.. وإلى الأبد.

كانت الفتنة كما لم أعرفها من قبل.

خرج صديقي بما يحتاجه، أما أنا فلم أقوَ على الخروج نهائيًّا، حتى وصلني صوت العمة يطلب القدوم لطعام الغداء. يبدو أنني لم أسمعها أول مرَّة، فوجدتها أمام الباب تقول:

ـ حاول أن تخرج بسرعة لأن هذه الغرفة بها أشباح!

استنكرت ما تقوله:

ـ أشباح؟!

قالت:

ـ أُمَّال مين برأيك بيسوي كل هالشغلات اللي إنت شايفها؟

(٧)

تزوج الحبيب القديم من ابنة خاله، وشاء القدر أن يكون منزلهما الجديد إلى جوار منزل نجاة علي. قبل أن تفكر نجاة علي في الأمر وجدت زوجة حبيبها القديم تزورها، جاءت إليها باكية، جاءت إلى نجاة باكية ترجوها أن تزور زوجها المريض الذي ينتظر الموت خلال أيام، وأخبرتها أنها تعلم بقصة حبهما من قبل الزواج، وبعد أن أخبرت نجاة زوجها بكل شيء كان نبيلًا وطلب منها أن تزوره.

لا أحد يعرف ما دار في هذه الزيارة، لكنه رحل بعدها بأيام.

(٨)

بعد العشاء، وبينما العمة تصب لي القهوة من جديد أشعلت سيجارة، قائلة إن سيجارة وفنجان قهوة يساعدانها على النوم في هدوء. قالت لي إن التلفون الموجود في بيتها به خاصية الاتصال الدولي إن كنت أود مهاتفة أهلي في مصر، فشكرتها. قالت إنها تستخدم الخاصية في مهاتفة صديقتها الوحيدة التي تعيش في أستراليا.

كانت تتحول بالتدريج إلى طفلة وهي تقاوم النوم، كانت تقاومه لأنها تعرف أننا سنرحل صباحًا. قلت لها:

ـ هل يمكنني أن أتصل بكِ من مصر لأطمئن عليكِ؟

فذهبت وعادت بأجندة قديمة وكتبت رقم هاتفها واسمها إلى جواره، «نبيلة».

في صباح اليوم التالي فتحت باب الشرفة على مهل فلم تغادر العصافير مكانها، كانت هي في المكان نفسه بثوب جديد، فقالت:

ـ برافو!

ثم ضحكت قائلة:

ـ برافو يا حيوان!

(٩)

داومت لفترة على مهاتفتها. تسألني إن كنت تزوجت أم لا زلت حمارًا. أقول لها: «لسه حمار». نحكي في كل شيء، ثم ننهي المكالمة بعبارة ثابتة: «فرصة سعيدة يا نبيلة». فترد: «فرصة أخت... يا عمر».

(١٠)

كانت أول من هاتفته بعد قيام الحرب هناك، لكن لا شيء، لا جرس، لا مشغول، لا رسالة مسجلة!

بعد فترة عرفت أن صديقي قد هاجر بأسرته إلى النرويج.

راسلته على فيس بوك، وسألته عن العمة، قال:

ـ رفضت أن تترك بيتها، وهي في أمان.

سألته عن هاتفها، قال:

ـ لا يوجد، لكنها تستطيع أن تتصل بنا أحيانًا ولا أعرف كيف!

طلبت منه أن يعطيها رقم هاتفي، فوعدني أن يفعل.

مر وقت طويل، كل ما أعرفه عنها أنها ما زالت على قيد الحياة.

تمر في بالي كلما مررت أنا بشيء به حياة حقيقية.

لم يحدث يومًا أن نمت رائقًا ولم أحلم بها. عندما أضع رأسي فوق الوسادة سعيدًا بلا سبب، أثق تمامًا أنني سألتقي بعد قليل بامرأة في الخمسينيات، نحيلة، عقدت شعرها الأشيب في ضفيرتين، تضحك وهي تدخن سيجارتها، وتغني:

فاكراك ومش هانساك

مهما نسيت حبي

وإن رُحت مرَّة تزور

عش الهوى المهجور

سلِّم على قلبي

سلِّم

سلِّم على قلبي

راحوا الحبايب

أحمد عدوية

كلمات: حسن أبو عتمان

ألحان: حسن أبو السعود

(١)

قالت لي الجدة عبر الهاتف:

ـ كده برضه يا ابن الكلب!

كانت صادقة تمامًا، وبعد فترة فهمت لماذا كان العتاب قاسيًا هذه المرَّة.

(٢)

يحتل بيت الجد مكانًا مميزًا في البلدة التي تبعد عن المدينة مسافة ساعة، لكن بيت الجد كان يسبق البيوت المجاورة له

بعشرات السنين، بأن كان أول من أدخل الكهرباء، وأول من امتلك ثلاجة.

في منتصف نهار رمضاني قاسٍ، كان الخال مسترخيًا على أريكة عريضة يتصبب منه العرق، بينما أنا على أريكة مقابلة أجلس بملابسي الداخلية طفلًا أعيته الحرارة العالية، ويعد الساعات المتبقية على أذان المغرب.

بينما صوت أحمد عدوية ينبعث من كاسيت قريب من الخال، كانت أذني معلقة بباب البيت في انتظار أن أسمع شخصًا يصفق. كانت تلك الإشارة تعني أن أحد أبناء البلدة على الباب يحمل إناء من المعدن أو البلاستيك يفيض الماء من حافته، وكل ما عليَّ أن أستلمه لأضعه في ثلاجة البيت، تحديدًا في الفريزر، حتى يتحول إلى ثلج يمر صاحبه قبل المغرب بدقائق لاستلامه، وكان عليَّ أن أميز صاحب كل إناء. كان هذا هو الدور الذي حددته لي الجدة من بين أدوار مختلفة يقوم بها كثيرون حولها في رمضان.

كان جزء من مهمتي أيضًا ترتيب الفريزر بما يسمح باستيعاب عشم أهل البلدة في الحصول على الثلج، كان شرط نجاح المهمة كما أفهمتني الجدة ألا يعود أحدهم إلى بيته «على المغرب» مكسور الخاطر أو كل ما يحمله بعض الماء المثلج فقط لأن لا مكان له في الفريزر، ولم يحدث أن خذلتها.

كان صوت عدوية قادمًا من الكاسيت يغني: «راحوا الحبايب».

قلت لخالي إن الأغنية غريبة جدًّا ولا تشبه ما يمر بالواحد من أغانٍ. فقال لي فرحًا:

ـ أصل دي أغنية شعبي.

قالها بطريقة أوقعتني فورًا في غرام «الشعبي»، وجعلتني أفتش عنه طول الوقت.

صفق أحدهم فنزلت له، أعطاني كوبًا بلاستيكيًّا أحمر اللون مليئًا بالماء ومعه شيء ما ملفوف في ورق الجرايد، عندما فتحت الجدة اللفة كانت تحتوي على قطع من القماش رفيعة وطويلة من ألوان مختلفة كان باديًا أنها من مخلفات الحياكة، قطع أشبه بتلك المستخدمة في صنع الكليم اليدوي. سألت الجدة عن الغرض منها فقالت لي:

ـ ملكش دعوة.. شوف اللي وراك!

قبل المغرب بقليل يبدأ عمل بقية الفريق.

يتجهون إلى المندرة، هناك من ينظف المكان، وهناك من يستخدم الخرطوم لرش أرضية المدخل لترطيب الأجواء والقضاء على أي فرصة لإثارة الأتربة، هناك من يعد منضدة الطعام بأن يمر بالجدة لاصطحاب الأطباق والمعالق وأرغفة الخبز الشمسي موضوعة في قفة ومغطاة بفوطة نصف رطبة، وهناك من يساعد المقرئ المقيم في المندرة طوال الشهر على غسل وجهه وارتداء ملابسه.

يأتي المقرئ من بلدة بعيدة ليقضي الشهر في المندرة، يؤنسنا

كل ليلة بتلاوة القرآن؛ مشهد توارثته الأجيال منذ أقيمت هذه المندرة على ضفة النيل الشرقية أيام كان النيل يمر من هنا. بعد السد العالي انحسرت المياه عن هذه المنطقة، ولم يتبق سوى كوبري خشبي تمر فوقه صواني طعام الإفطار لتستقر أمام رجال العائلة وضيوفهم في المندرة.

يبلغ توتر الجدة أقصاه قبل خروج الصواني من عندها، تضع فوق الصينية كل شيء ما عدا طواجن اللحم والطيور، تتركها في الفرن البلدي حتى آخر لحظة حتى لا تفقد طزاجتها ودرجة سخونتها، تختبر بطرف لسانها ملح كل طبق، ودرجة تحلية المشروبات، ودرجة تماسك حبات الأرز، تختبر إحدى حبات الفريك بإصبعها لتتأكد من تمام نضجه، وتطمئن لوجود لونين مختلفين من الخضراوات (الأحمر والأخضر) مراعاة لأذواق الجميع، تضع في جيب من يحمل الصينية صابونة ريحة بورقتها وتضع فوق كتفه مناشف مشغولة أطرافها بالدانتيل.

أما الحلوى فلها صينية بمفردها، قبل خروجها ترفع الجدة الغطاء عن طبق بلح الشام لترش على وجهه بعضًا من جوز الهند، ثم ترفع الغطاء عن «فطيرة الصينية» لتقطعها مربعات صغيرة يسهل التهامها على مرَّة واحدة، وتعتذر في كل مرَّة عن أن الوقت لم يسعفها لعمل صنف ثالث، على وعد أن يكون في قلب الصينية غدًا، لم يحدث يومًا ما أن أخلت بوعدها.

بمرور الوقت يكبر الواحد، ويتذكر كل فترة الفرص التي أضاعها والتي لن تتكرر. غصة ما ترقد أسفل السؤال: لماذا لم أفعلها؟ انقضت رمضانات كثيرة لم أفكر يومًا أن أتخلى عن مشوار المندرة لأفطر مع الجدة.

(٢)

قال لي المخرج:

ـ من الذي ترشحه لغناء التتر الذي ستكتبه للمسلسل؟

قلت له:

ـ سأكتب أولًا ثم نستقر على ملحن، بعدها نختار المطرب معًا.

قال المخرج:

ـ نريد مطربًا غير تقليدي.

اعتبرتها أمنيات من التي تقال في اجتماعات العمل وينتهي بها الأمر في مجال الاختيارات التقليدية.

بعد أن استمعنا إلى لحن الأغنية، كرر الملحن السؤال نفسه عن المطرب الذي أرشحه، قلت له:

ـ عدوية.

لا أعرف ما الذي دفعني لذلك. صفق الملحن كثيرًا للاختيار، وكان باديًا في عينيه أن الاختيار معجزة.

في الاستوديو عرفت سر تلك النظرة.

كنت أقصد وقتها «محمد عدوية الابن»، لم يأتِ في بالي أحمد عدوية الأب، لأنه كان بعيدًا تمامًا عن الغناء، ولا يظهر في أي مكان، كنا جميعًا قد اعتبرناه في عداد المعتزلين.

وصل الأب مع الابن، وفرحت لرؤيته، انتظرت أن يدخل الابن في أي لحظة ليقف أمام المايك ليغني، لكن عندما وجدت الأب هو من يقف ليغني فهمت أن الملحن قد أحب الاختيار لأنه لم يأتِ من قبل في بال أي من المشتغلين في الموسيقى، ولا حتى بالي أنا شخصيًّا.

كانت البداية متعثرة قليلًا؛ لم يندمج عدوية مع اللحن بسرعة، ربما لغيابه عن الملاعب. كان الملحن ذكيًّا، طلب من عدوية أن يسلطن نفسه بغناء موال فتتخلص حنجرته من التوتر ويدخل في المود. استحسن عدوية الفكرة ثم بدأ يغني: «راحوا الحبايب».

(٤)

كانت الجدة تمر بالصالة أثناء تكومنا أنا والخال على الكنب أسفل المروحة، لتلتقط أنفاسها، وتجفف عرقها، وتراجع ما ينقص الإفطار الذي تقوم بتجهيزه.

- في إحدى المرات طالت جلستها، كان عدوية يغني:

راحوا الحبايب بقالهم عام والتاني
ويوم ييجي عقلي في راسي ويوم بيتوه
والقلب خدتوه ومن يومها ما جاش تاني
راحوا راحوا

لاحظت أن الجدة تجفف دموعها دون أن ترفع نظارتها الطبية عن عينيها. لفت ذلك نظر الخال فسألها عن سبب بكائها، فقالت:

ـ أهو بابكي مع اللي بينوح ده على الحبايب اللي راحوا!

ثم صمتت قائلة:

ـ عقبال ما أروحلهم أنا كمان!

رد الخال مداعبًا إياها:

ـ إن شاء الله.

فخلعت ما في قدمها وقذفت به الخال قائلة:

ـ يا جليل الربابة!

فانفجرنا في الضحك.

فقدت الجدة ابنها الكبير شابًّا في حادثة، ثم رحل زوجها بدون مقدمات، وعلى هامش الابن والزوج كانت تفقد كل عام أختًا أو ابن أخ، لم ألمحها يومًا ترتدي غير الأسود داخل البيت أو خارجه، إلا مرَّة واحدة عندما كانت في طريقها إلى العمرة.

مرَّة أخرى لمحت دموعها، كانت ممسكة بشرائط القماش الرفيعة الملونة وهي تعقد أحدها بالآخر، لكنها سرعان ما طلبت مني أن أخرج.

في الليل يتناول المقرئ سحوره بمفرده، تذهب له صينية تحمل الفول والبيض بالسمن البلدي وملحقات السحور من جبن قريش وزبادي منزلي، ونسهر أنا والخال والجدة نتناول سحورنا ونناقش «منيو» اليوم التالي. بعد أيام تنضم إلينا أصغر واحدة من خالاتي قادمة من الكويت، فيشيع في البيت جو من المرح والنشاط، ويصبح لدى الجدة من يؤنسها ويمنحها الفرصة لتجلس واضعة ساقًا فوق ساق مكتفية بإصدار الأوامر. كانت الخالة تحمل للجميع هدايا مختلفة من الكويت، لكنها كانت تخص الخال بشرائط الكاسيت وفي مقدمتها عدوية. وقعت في غرام عدوية مبكرًا، وصرنا أنا والخال نتبادل اكتشاف أغنياته وألبوماته التي لا يعرفها كثيرون.

عندما وقع الحادث المشهور لعدوية أصبت بصدمة لا تتلاءم مع عقلية مراهق صغير لم يختبر حوادث من هذا النوع. وقعت في يدي مجلة بها حوار مع عدوية بعد الحادث بشهور، كان يقول في الحوار:

ـ سأرد على المشككين في رجولتي بإنجاب محمود.

قلت للخال إن مطربنا المفضل ضاع. قال لي:

ـ اكتب له رسالة.

كتبت الرسالة، وعندما جاء موعد كتابة العنوان على الظرف لم أعرف له عنوانًا، فأرسلتها على اسم الصحفي الذي أجرى الحوار وعنوان مجلته: «إلى الأستاذ محمود الجمل، ومنه إلى

الفنان الكبير أحمد عدوية». كتبت له أننا نحبه ونتمنى له الشفاء والعودة سريعًا. أخبرت الخال بما فعلته فاندهش قائلًا:

ـ أنا كنت باهزر!

(٥)

غنى عدوية، وبينما يضع لمساته الأخيرة على الأغنية، انتحيت جانبًا بالتلفون وهاتفت خالي لأخبره بأن مطربنا المفضل يغني كلماتي الآن في الاستوديو. لم يصدق، قلت له:

ـ تكلمه؟

بعد أن أنهى عدوية الكلام مع خالي أعاد لي التلفون وسألني:

ـ إيه موضوع الجواب ده؟

(٦)

كلما كبرت يقل عدد أيام رمضان التي أقضيها في بيت الجدة؛ بدأت بالتواجد قبل رمضان بشهر إلى أن أصبحت ألحق بآخر يومين في الشهر قادمًا من القاهرة.

هاتفتني الجدة طالبة مني أن أحضر الشهر من أوله هذه المرَّة وأكدت على طلبها، وعدتها أنني سأفعل قائلًا:

ـ عايزاني من أول الشهر في إيه؟ ما خلاص راحت على تلاجتك!

أصبح في كل بيت في البلدة ثلاجة، ولم يعد هناك أحد بحاجة إلى ثلاجة الجدة، لكن ظل الجميع ينتظرون رمضان ليتذوقوا طعامها. بخلاف رمضان كانت تود كل بيت بالطبق المفضل لدى أهله كل فترة. عندما تشعر بالتعب كانت تدعو: «يا رب يوم عليل ويوم رحيل». كان دعاؤها المفضل ألا ترقد في فراش المرض أكثر من يوم إذا حان أجلها لترحل في اليوم التالي.

قبل رمضان بيوم تعبت فنقلوها إلى المستشفى، كلمتها عبر هاتف أمي لأطمئن أنها بخير، قالت:

ـ كده برضه يا ابن الكلب!

فهمت أنها طلبت مني الحضور مبكرًا الكي تودع أكبر أحفادها، مدير الثلج، لأنها حسبما تمنت قضت «يوم عليل» في المستشفى، ثم رحلت في اليوم التالي، وكان أول يوم رمضان.

(٧)

نجح تتر المسلسل، وعاد عدوية إلى الأضواء بقوة. تأكد الجميع أنه بخير وقادر على الغناء من جديد فلهثوا خلفه من جديد. صار يطل من البرامج والكليبات والإعلانات.

كان خالي يداعبني قائلًا:

ـ إنت اللي رجعته.

أقول له:

ـ إنت اللي حبتني فيه.

أذكره يوم أن بكت الجدة، يتنهد ويصمت.

بعد رحيل الجدة تولت الخالة الصغيرة مسؤولية إفطار المندرة، كانت تلميذة نجيبة أدهشت رجال العائلة الذين قالوا إن الجدة لم تغب.

ثم غابت الخالة، ورأيت الخال يبكيها بحرقة أمام قبرها، وبعد رحيل الخال لم تتوقف صواني الإفطار عن التحرك باتجاه المندرة لكن خارجة من بيوت أخرى غير بيت الجدة.

(٨)

كرة من القماش الملون كانت مخبأة أسفل فراش الجدة، أخرجها أحدهم بعد الوفاة.

الحفيدة ابنة الخالة الصغرى كانت تعرف السر: كرة القماش الكبيرة مصنوعة من شرائط القماش الملونة الرفيعة، كانت الجدة تصنعها على مهل، كانت دائمة التسبيح، وكلما أتمت ألف مرَّة من التسبيح، عقدت قطعة قماش في ذيل الأخرى، هكذا حتى كانت هذه الكرة، عندما لمستها كانت رطبة، تذكرت يوم دخلت عليها وهي تعقد واحدة في أخرى وتبكي!

ديسكو دانسر

كلمات وألحان: شيكو موراتكس

(١)

توجه الجار برفقة أولاده الكبار إلى محل الذهب الذي يمتلكه رجل نحيل، يحملون أسلحتهم وكلهم رغبة في تأديبه وتلقينه درسًا مهينًا لسبب لم يعد أحد يتذكره الآن.

عرف عمي الخبر فانتفض، من ناحية كان هو قد ورث عن والده مهمة حماية الأقباط الذين يمتلكون محلات ذهب في الشارع، كان والده العمدة، لم يتولَّ عمي المنصب لكنه ورث تباعته دون تكليف رسمي، ومن ناحية أخرى لم يكن متأكدًا من أنسب طريقة للتعامل مع جار قديم.

نظرة صاحب محل الذهب القبطي النحيل وهي تتلوى فزعًا حسمت الأمر. خرج عمي إلى الشرفة حاملًا سلاحه الناري، وطالب الجار وأولاده أن يتراجعوا، لكنهم لم يهتموا. سحب

العم أجزاء السلاح وتحول الطلب إلى تهديد، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئًا. صوب العم سلاحه باتجاه الجار، وأطلق النار فاستقرت الطلقة في ساقه. ساد الذعر المكان، كان باديًا أن الأب يلفظ أنفاسه، فهرع به أولاده باتجاه المستشفى الحكومي، وهكذا أصبحت الجناية أمرًا واقعًا، قتل أو شروع في قتل لا أحد يعرف، لكن الأكيد أن باب الثأر قد انفتح في هذا الشارع بين بيتين متجاورين حرفيًّا، وأن الأيام القادمة بها مأساة ما، لا أحد يعرف حدودها.

(٢)

كانت شمس أغسطس قد أخلت شوارع البلدة، وبينما خيوط العرق تأخذ طريقها فوق ظهر الواحد باتجاه مؤخرته، كنا نحاول أن نغلق باب الإسطبل الكبير الذي خبأنا فيه سيارة العم حتى لا يعرف أحد مكانه، ولكي يثق أولاد الجار في اختفائه من البلدة كلها فلا يثيرون هلعًا على هامش البحث عنه، كما أن السيارة كانت مستهدفة بلا شك، فوجب إبعادها عن الأنظار حتى لا يصحو أحدٌ على مشهدها وهي تتفحم على سبيل عربون للثأر المتوقع.

لكن أين العم؟

كان العم في بيتنا، ووالدي يضرب كفًّا بكف متسائلًا عن

ضرورة ما قام به وعن التنغيص المتوقع، وكان العم ساكنًا لا يتكلم، يدخن بشراهة، وينظر إلى الأرض، ويتساءل كل قليل عما يجب أن يفعله في اللحظة القادمة. كانت نصيحة الأب بأن يستقر العم في منزل أحد الأقارب في بلدة أخرى حتى نعرف مصير الجار.

كان الجار يتعافى ببطء، نجا من الموت بمعجزة، لكن ساقه التي تهشمت عظامها لن تعود إلى حالتها لكبر سن الرجل، كان عليه أن يظل «يعرج» حتى آخر لحظة في حياته.

وما إن عاد الرجل إلى بيته حتى تدخَّل كبار البلدة كي لا يتفاقم الوضع، لكن كان باديًا للجميع أن أولاده لن يغفروا أبدًا.

(٣)

مهمتي شبه الأسبوعية كانت التسلل إلى الإسطبل ليلًا «لتسخين السيارة» حتى لا يتيبس الموتور أو تفسد البطارية أو تتصلب العروق التي يسري فيها الوقود. كانت مهمة بسيطة أسندها إليَّ عمي قبل أن ينسحب من المشهد لفترة.

كانت مهمة مثيرة، في إحدى المرات أدرت الكاسيت فوجدت أغنية كان باديًا أنها «هندية». أخرجت الشريط، كان مكتوبًا عليه أغاني فيلم «I am a disco dancer».

أعرف أن عمي صاحب ذائقة موسيقية أرفع من حالة رجل

يعيش في أقصى الصعيد ما بين حدائق الموالح التي يمتلكها ومندرة صغيرة يجتمع فيها الناس بحثًا عن كبير يحل مشاكلهم. معه في السيارة كان يصعب توقع ما سيديره في الكاسيت، تنقلت معه من «ديانا روس» إلى «متقال القناوي»، ومن الأغنيات اللبنانية إلى أغاني السمسمية البورسعيدي، لكن لم يرد في بالي يومًا مسألة الأغاني الهندية.

من بين أغنيات الشريط علقت في القلب أغنية نصف حزينة نصف مبهجة، لم أستطع أن أميز من بين كلماتها سوى كلمة «دنيا»، أصبحت هي المفضلة عندي، حفظت الكلمات دون أن أفهم معناها: «جورون كي نا تا لوكي دنيا هيدال با لوكي». كان بإمكاني أن آخذ شريط الكاسيت لأستمع إليه في البيت كما يحلو لي، لكنني اعتبرتها أمانة. كانت الأغنية ترن في الكوكب كله في كل مرَّة أتحرك من البيت إلى الإسطبل، فأصبحت هي الأغنية الرسمية للمهمة بل للتجربة كلها.

(٤)

لفترة طويلة كان أولاد الرجل يتلذذون بإطلاق النار العشوائي في الشارع، والتعليم على الجدار الخارجي لمنزل العم. في الوقت نفسه أصبحت المسألة أمام القضاء في انتظار حكم مؤكد. كانت وجهة النظر أنه «حكم بحكم»، فليكن

السجن مقابل أمر يستحق ينهي التردد، فلا أولاد الرجل قادرون على قتل أو إصابة أحد ربما خوفًا من أن تتسع المأساة، ولا هم قادرون على إيقاف بث «الرذالة» يومًا بعد يوم في كل مكان يظهر به أحد من العائلة.

لا فرصة للصلح، ولا منفذ يمكن أن يصل من خلاله كبار البلدة إلى حل. استحكم الخصام، وأصبح إطلاق النار المتبادل أمرًا لا موعد له، وسيطر الذعر على حياة كل الأطراف.

عاد عمي إلى منزله، وتحولت المندرة إلى ترسانة أسلحة، وتأهبنا جميعًا للمعارك، لكن الأمر المؤسف أن مهمة السيارة قد انتهت بعد أن باعها العم. لم يوجه أحد ضربة قاضية وكان لا بد من واحدة.

تبرع قريب أحبه بالمهمة، تجاهل كل شيء في شخصيته المثقفة الودود الطيبة، ولم يرَ سوى الرجل الصعيدي الذي قرر أن ينهي الرذالة أو أن يأخذها إلى مستوى آخر؛ المستوى الذي يحفظ للعائلة ماء وجهها، ودَّعنا وائتمننا على أسرته، وكمن في مكان ما حاملًا سلاحه ليضع النقط على الحروف.

مر الرجل أمامه وهمَّ بإطلاق النار فعلًا، كانت نهاية الرجل مرهونة بطلقة زناد من بندقية أُحكِم نشانها على منتصف جبهته، لكن شخصية القريب الحقيقية ظهرت بدون مقدمات، الرجل الحقيقي بداخله الذي نعرفه والذي تجاهله هو شخصيًّا ظهر ليزيح ماسورة البندقية بعيدًا بينما الجار يبتعد عن مرمى النيران

برفقة أولاده وهو يسير على قدمه العرجاء بطريقة بائسة، ربما هذا ما جعل القريب يتراجع.

(٥)

صيف ٢٠٠٥ ولا أحد قادرًا على أن يضع قدميه على أسفلت البلدة، ذكرني الحر بالمهمة القديمة، استرجعت الذكرى مع ابن العم، ما بين ضحك ودموع كنا نُذكِّر أنفسنا بالأغنية، كيف يمكن الحصول عليها؟ قال:

ـ اليوتيوب.

لكن السؤال: ماذا نكتب على اليوتيوب؟ فليكن اسم الفيلم، اسم الفيلم قادنا إلى الأغنية التي تحمل الاسم نفسه، جرَّبت أن أكتب اسم الأغنية كما أحفظها من الطفولة: «جورون كي نا تا لوكي دنيا هيدال با لوكي»، فظهرت أمامي كمعجزة.

كانت الترجمة تقول:

لا فرق بين الأبيض والأسمر
تبقى الدنيا في النهاية لأنقياء القلوب
أمثالنا يعيشون ويموتون من أجل ابتسامة على وجوه الآخرين
نحن لا نحب الذهب ولا الفضة
نحب فقط أن نغني

(٦)

زادت حدة مرض السكر على العم، ثم انقلب الأمر إلى قدم سكري، لم يكن هناك بديلٌ عن بترها.

اليوم الذي دخل فيه العم إلى الشارع يستند على عكاز يعوض قدمه المبتورة كان يومًا مأساويًّا. حاول العم أن يبث الطمأنينة في وجه محبيه، لكن حزنًا ما كان يطل من عينيه طوال الوقت.

فوجئنا ذات يوم بالجار وأولاده يطلبون زيارة العم، غلب الصمت على الجلسة، عادوا في لحظة مجرد جارين: واحد في ابتلاء، والآخر يشد من أزره. انتهت الخصومة، وتم دفنها في اليوم الذي تم فيه دفن قدم العم المبتورة.

بعدها بأيام مات العم! وبعدها بفترة فقد الجار ابنيه مرَّة واحدة في حادث سيارة!

آل جاني بعد يومين

سميرة سعيد

كلمات: عبد الوهاب محمد

ألحان: جمال سلامة

خرجت من الكلية في صحبة صديقي الذي يعيش بمفرده، كانت المرَّة الأولى التي أزوره في بيته، وكانت صداقتنا في بدايتها، وشجعني على قبول الدعوة أن شقته قريبة من المدينة الجامعية حيث أسكن هناك في غرفة فردية حصلت عليها بالواسطة؛ الغرف الفردية مخصصة لطلاب السنوات النهائية بينما أنا لا زلت في السنة الثانية، لكن المشرف العام يمت بصلة قرابة لأحد أصدقاء العائلة.

وضع صديقي أمامنا أكواب الشاي، ثم نزل على ركبتيه أمام التلفزيون قائلًا:

ـ هافرجك على حاجة تعجبك.

كان هذا هو فيلم البورنو الأول في حياتي.

لا مجال للتنظير حول هل كان الأمر سيختلف إذا ما خضت هذه التجربة في سن مبكرة قليلًا أم أن هذه السن مناسبة.

الشيء الوحيد الذي أعرفه أنها كانت صدمة.

هذا الدخول المفاجئ بلا مقدمات على عوالم كان سقف المعرفة فيها صفحات من مجلات الموضة والمجلات الفنية القديمة كان مربكًا. يبدأ الفيلم بقصة عادية، ثم سرعان ما تطورت الأمور، مع كل خطوة كنت أقول إنها الأخيرة، لن يحدث أكثر من ذلك، لكن الأمور كانت بلا رابط، بلا سقف، بلا رحمة.

بعد عشر دقائق شعرت بنصل يخترق فم المعدة، حرقة رهيبة كانت تزيد بالوقت، وكنت أشعر ـ ولا زلت حتى الآن ـ بالنبض متسارعًا في عروق جبهتي، كنت أجد صعوبة في ابتلاع ريقي، جف كل الماء الذي يحمله جسمي، خلال الدقائق العشر كان جسدي يختبر كل شيء إلا الشعور بالإثارة.

وقفت لأنصرف، أمسك بي صديقي وهو يضحك:

ـ رايح فين؟

قلت له:

ـ لازم أمشي!

كنت أتحرك بسرعة، وكل ما أطمح إليه أن أصل إلى غرفتي لأنفرد بنفسي، أريد أن أصل إلى فراشي لأتمدد فيه، وأغمض عينيَّ، وأستعيد القدرة على التنفس الطبيعي.

كنت أراقب الأرقام المضيئة في الأسانسير، وأعد معها الأدوار التي نهبطها، خمسة أربعة تلاتة اتنين، زاد من توتري مصباح المصعد النيون الذي كان يضيء ويُظلم بانتظام.

عندما وصلت إلى الرقم صفر، تعجلت فتح باب المصعد قبل أن يستقر تمامًا في الدور الأرضي، فعلق المصعد قبل سنتيمترات من العتبة، واستقر في هذه النقطة، وفشلت كل محاولاتي للصعود مجددًا أو الهبوط أو الخروج، فبدأت أطرق بابه تحت وطأة ما أعانيه.

سمعت صوتًا نسائيًّا يخبرني أن البوَّاب يشتري بعض الأشياء وسيعود خلال دقائق. خمنت أنها زوجته. قالت إنه الوحيد الذي يعرف حلًّا لهذه المشكلة وعليَّ أن أنتظره.

سألت:

ـ هل سيتأخر؟

قالت:

ـ إن الله مع الصابرين!

ثم سمعت صوت خطواتها وهي تبتعد باتجاه غرفتها، بعد ثوانٍ كان صوت الراديو قد ارتفع قليلًا مع دخول موسيقى أعرفها، عرفت الأغنية في اللحظة نفسها التي أطل فيها صوت سميرة سعيد:

آل جاني بعد يومين
يبكيلي بدمع العين

يشكي من حب جديد

وسكت وقالي شهيد

كان صوتها يصلني واضحًا، بينما أحاول أن أنهي توترًا تصنعه حالة مصباح المصعد المتذبذبة. حاولت قدر استطاعتي أن أمد أطراف أصابعي لأفصل عنه الكهرباء. بلمسة صغيرة توهَّج المصباح، منحني النور بعض السكينة لثوانٍ، ثم انطفأ تمامًا في اللحظة نفسها التي تحوَّل فيها اللحن إلى صراخ:

شايفين الظلم يا ناس

ده حلال ده ولّا حرام

آه من جرح الإحساس

دي آلامه أشد آلام

كانت مأساة سميرة سعيد تفوق مأساتي بمراحل، أعرف ذلك، وأقدره تمامًا، وأحترم صدمتها، لكن نقلات اللحن كانت مفزعة، لا يتحملها شخص محبوس في مصعد مظلم يشعر بالعطش والارتباك. فيمَ كل هذا الصراخ الذي تبثه كمانجات بأقواس حادة جعلت المصعد يدور بي؟!

أرهقتني أغنية سميرة سعيد حتى انتهت، فالتقطت أنفاسي ثم جلست مكاني.

بعد دقيقة كانت الأغنية نفسها تبدأ من جديد، فعرفت أنه لم يكن راديو بل كاسيت زوجة البوَّاب.

طالت غيبة البوَّاب. كنت أفكر فيمَ كل هذا الضجر الذي

يستعمرني؟ هي المفاجأة بلا شك؛ لم أكن مستعدًّا لهذه اللحظة، كنت أقول لصديقي عندما بدأ الفيلم:

ـ إنه بدون ترجمة!

فقال لي:

ـ لن تحتاج للترجمة.

لم أدقق فيما قاله، وتابعت القصة: حفل في بيت، صاحبة الحفل امرأة جميلة، بعد انتهاء الحفل يعود شاب ذو سوالف عريضة وقد نسي مفاتيحه، تشاركه البحث، ثم يحدث أن يقتربا في وضع ما لالتقاط المفاتيح الموجودة أسفل المنضدة، ثم تشتعل الأحداث كما تعرف.

قلت لنفسي ما لزوم القصة؟ لقد خدعتني وسحبتني من يدي إلى ما لم أكن مستعدًّا له! لو كان شريط الفيديو منذ أول لحظة يدخل في الموضوع ما كان الواحد ليرتبط بأبطال الفيلم فيصبح الفكاك منهم مربكًا. ما لزوم القصة؟!

كنت أفكر أن كل شيء في الكوكب يصلح كمفتتح لفيلم بورنو: سبَّاك يزور بيت امرأة وحيدة تغويه بعد أن أثارتها عضلاته أو لأنها لا تمتلك مالًا يكفي أجرته، مدير يطلب من السكرتيرة أن تحضر له ملفًّا من رف عالٍ في المكتبة، طالبة تزور المدرس بعد انتهاء الحصة في غرفة المعلمين تسأله عن أمر لم تفهمه، صديقة الابنة تزور البيت في غياب الابنة وفي حضور كامل للأب، مشاجرة بين رجل وامرأة لسبب تافه، عامل توصيل البيتزا

الجذاب، خادمة تنظف سلالم البيت، شرطي مرور يتقاضى ثمن المخالفة، سجن للنساء يعج بالحرمان مقابل موظفين متعاطفين، أن تضبط إحداهن تأخذ دشًّا، أن تضبط أحدهم يشاهد فيلم بورنو، أن تفقد البطلة اتزانها من فرط الخمر... القصص لا تنتهي، تبدأ بمساعدة جارة وحيدة في تغيير إطار السيارة، مرورًا بمساعدة صاحبة العمل على اتخاذ قرار منحك الوظيفة، نهاية بمساعدة أي واحدة على عبور الشارع.

وجود قصة ما يمنح المشاهد قدرًا من راحة البال، يطمئنه على نفسه كونه ليس حيوانًا مهتمًّا بمجرد أجساد عارية، بل إنه إنسان يُقدِّر الضعف البشري، ولديه فضول حقيقي لمعرفة إلى أين يقود أصحابه. لحظة الضعف تلك هي الغواية بكل ما يفرشه الشيطان حولها من أضواء ملونة تعمي. أما لحظة الانهيار فهي المتعة كاملة. بعد ذلك يتساوى الأبطال والمشاهدون كحيوانات نادرة تتمنى السعادة للجميع.

كانت أغنية سميرة سعيد تبدأ من جديد للمرَّة الثالثة، لكن أنقذني وصول البوَّاب.

كان منزعجًا، ليس لوجود شخص محبوس في المصعد، لكن ليقينه أن مَن بالداخل ارتكب خطأ كان العطل ثمرته.

قال بصوت عالٍ قبل أن يفتح الباب:

ـ معلقين ورقة ما حدش يفتح الباب غير لما يقف الأسانسير!

شعرت به يتلكأ في حل المشكلة كعقاب لي.

عندما خرجت حاولت أن أتفادى الموقف كله لأعود سريعًا إلى غرفتي، لكن البوَّاب سألني إن كنت قرأت تعليمات فتح الباب المُعلَّقة أم لا. استفزني السؤال. كان ردي عصبيًّا بعد كل ما مررت به، كان رده أكثر عصبية، دفعته دفعة نصف قوية.

شعر البوَّاب بالإهانة.

توقعت ردود أفعال كثيرة: أن يضربني بيده، أن يدفعني أرضًا ويهجم عليَّ، أن يسحب سكينًا من غرفته ليطعنني بها، لكنه فاجأني باختيار كان جديدًا تمامًا.

أمسك البوَّاب بقميص زوجته ثم شقه نصفين بالطول حتى بان لحمها.

نظر إليَّ قائلًا:

ـ والله لأشيلك قضية اغتصاب!

في حركة سريعة أغلق باب العمارة بالجنزير، وطلب من شخص ما أن يُحضر الأمين محمود. خرج ثلاثة من السكان إلى مدخل العمارة، كانوا ينظرون ناحيتي فلا يصدقون ما قاله البوَّاب، ثم ينظرون ناحية زوجة البوَّاب بملابسها التي تحولت إلى أشلاء وهي تقف صامتة فتنتابهم الحيرة. رجوت زوجة البوَّاب أن تقول الحقيقة، لكنها كانت مستسلمة تمامًا لخطة الزوج، مثلت الانكسار ولم تنطق.

سألني أحد الجيران:

ـ نازل من عند مين؟

أجبته، فقال:

ـ آه، كنتوا بتتفرجوا على أفلام سكس! صح؟

عند مداخلة الجار رأيت في عيون الموجودين أنهم يصدقون رواية البوَّاب.

قال لي أحدهم قبل أن ينصرف:

ـ ليه كده؟ شكلك ابن ناس! آديك ضيَّعت مستقبلك!

كنت بالفعل أتتبع خطوات مستقبلي وهو يضيع، حاولت أن أفلت من يده لأستنجد بصديقي، لكن المحاولة فشلت مع وصول الأمين محمود. قبل أن أفتح فمي بكلمة واحدة، كان الأمين محمود يلقي إليَّ بأكبر طوق نجاة شاهدته في حياتي.

لم يكمل البوَّاب حكايته، فقاطعه الأمين محمود صائحًا:

ـ إيه حكايتك يا عويس؟ هوَّ انت كل شوية هتعمل الحركتين بتوعك دول؟!

وضع عويس وجهه في الأرض، ثم عاد إلى نقطة الصفر قائلًا:

ـ مد إيده عليَّ!

تغيرت النظرة في عيون الموجودين. قال الأمين محمود:

ـ حرام عليك! بهدلت الست بتاعتك معاك!

هنا صفعها عويس أمام الجميع قائلًا:

ـ خشي جوَّه يا بنت الكلب!

عرف الناس أن بوَّاب العمارة مجنون. كان باديًا عليهم أنهم هم الذين وقعوا الآن في ورطة، بينما الأمين محمود يأمرني بالانصراف.

تركني البوَّاب، ورأيته وهو يركل بقدمه الكاسيت الذي كان يرقد فوق كرسي إلى جوار غرفته، ويغلق الباب، بينما صراخ زوجته يأتي من داخل الغرفة، في اللحظة نفسها كان السكان يعودون إلى أماكنهم، بينما الأمين محمود يسألني أين أسكن. أجبته، فقال لي:

ـ تعال هاوصلك.

أشار لي ناحية عمارة قريبة قائلًا إنه يعمل هنا في حراسة أحد المسؤولين في حال احتجت إلى شيء.

في غرفتي لم أجد شيئًا سوى الأرق.

قبل أن ينتهي العام سافر صديقي إلى والديه خارج مصر، ولم أره مرَّة أخرى.

أما الأغنية، فقد ظلت ماثلة في وجداني كأداة تعذيب. وأما بطلا الفيلم فإنهما يطارداني في الأحلام حتى يومنا هذا.

ميال

عمرو دياب

كلمات: مجدي النجار

ألحان: حجاج عبد الرحمن

توزيع: فتحي سلامة

(١)

في المدينة البعيدة، بينما الواحد في شرفة منزله لم يخلع ملابس المدرسة بعد، يجرب بعد وجبة الغداء لأول مرَّة في تاريخ مدينته مشروب «شاني» بطعم البرتقال، كان صوت عمرو دياب قادمًا من الغرفة يغني «ميال ميال»، الأغنية التي لم تنقطع عن بيتنا منذ صدورها قبل فترة.

في أحد أركان الشرفة كان الأب يجلس يقرأ جريدة «الأهرام»، بينما أنا أتأمل في الصفحة الأولى صورة لنجيب محفوظ يرتدي البيجاما ويمسك بفازة كريستال كبيرة ومكتوب فوق الصورة

بمانشيت عريض: «نجيب محفوظ يتسلَّم جائزة نوبل من السفير السويدي».

(٢)

كان هناك انقسام حول عمرو دياب عند ظهوره بألبوم «هلا هلا» قبل عام ونصف: الكبار امتعضوا كعادتهم في إصدار الأحكام المتسرعة حول كل ما هو جديد، الصغار أمثالي أيضًا كان حماسهم مبالغًا فيه كعادتهم في استقبال الجديد.

بالنسبة لي، ظهر عمرو دياب بقوة في منحنى من تخطى الطفولة ويقف على باب المراهقة، كبر الفضول وكبرت رغبة ما في التدقيق والتوقف عند التفاصيل ومراقبة الجميع.

عمرو الذي يفرق شعره من منتصف الجمجمة، ويرتدي بعرض الرقبة سلسلة رفيعة، بينما تطل «الكُسر» من بنطلونه بكثافة، كان نسخة من شباب العائلة الذين تحرروا من كتالوج «محرمات الطفولة»، فيذهبون إلى السينما بمفردهم، وأحيانًا بدون استئذان، ويدخنون السجائر خلسة، ويجرون مكالمات بها قدر من «النحنحة» تجلب لهم السعادة، كما أنهم ليسوا مضطرين لاستذكار دروسهم، فلا أحد يذاكر في الجامعة، أضف إلى ذلك أنهم يمتلكون رخصة قيادة ويستطيعون أن

يستمعوا في كاسيت العربية إلى كل ما يحلو لهم بصوت عالٍ، إنهم فاكهة العائلة التي تثير بهجة طفل يلح على صديقه ليقرضه ألبوم «هلا هلا» لينسخه على الكاسيت ذي البابين مع وعد بالمحافظة على الورقة الملصقة على الشريط وكسر البلاستيكتين الموجودتين أعلى الشريط حتى لا يتم مسحه بالخطأ.

ولكن الشريط ملك لشقيق الصديق الأكبر الذي يشبه عمرو دياب، ولا يستغني عنه أبدًا منذ اشتراه بثلاثة جنيهات. كان الحل أن أذهب إلى بيتهم حاملًا في شنطة سفر الكاسيت ذا البابين لأنسخ الشريط أمام أعينهم.

عند العودة إلى البيت كان خالي الذي تنطبق عليه مواصفات شباب العائلة الجذاب السابقة، قد اشترى لي نسخة أصلية من الشريط كهدية.

عاش الواحد مع الهدية لحظات ساحرة استمرت لعام ونصف، شهد تحولات مهمة، فبعد عام ونصف كان كل شيء قد تغير تمامًا.

(٢)

مع بداية الألفية الجديدة، وفي يوم شديد الحرارة، انصرفت من عملي مجهدًا، وعدت إلى منزلي لأنام. بين اليقظة والنوم

اتصل بي صديقي يطلب مني أن أرتدي ملابسي، وأن أنزل سريعًا. كان ينتظرني في سيارته أمام البيت.

سألت:

ـ على فين؟

قال:

ـ الساحل.

في الطريق حكى لي كل شيء.

(٤)

في تمام الساعة الواحدة و٥٥ دقيقة من بعد ظهر أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٨٨ كان السفير السويدي بالقاهرة يستعد لمغادرة مكتبه كالمعتاد في الثانية ظهرًا حين دق جرس التلفون، فإذا بمحدثه السكرتير الدائم للجنة نوبل في ستوكهولم يخبره بأن اللجنة قررت منح جائزة نوبل في الأدب هذا العام للكاتب الروائي المصري نجيب محفوظ.

وكان يجلس أمام السفير في تلك اللحظة أحد العاملين بالسفارة. وضع سماعة التلفون وقال له:

ـ لقد فاز الكاتب نجيب محفوظ بجائزة نوبل، وعلينا الآن أن نخبره بذلك، فهل تعرف عنوانه أو رقم تلفونه؟

فقال:

ـ لا، لكني أعرف أنه يعمل بجريدة «الأهرام»، وسأقوم بالاتصال بهم للاستفسار.

انتقل الخبر إلى «الأهرام» التي كانت أول جريدة في العالم تعرف الخبر.

اتصل الصحفي الذي تلقى الخبر بمنزل الأديب الفائز، فردت عليه زوجته السيدة عطية الله قائلة إن هذا هو موعد نوم الأستاذ، وإنها غير معتادة على أن توقظه، فهل هناك أمر خطير؟

فقال لها:

ـ لا، ليس الأمر خطيرًا، كل ما هناك أنه فاز بجائزة نوبل في الأدب.

فقالت إنها ستخبره. ثم رن جرس التلفون مرَّة أخرى بمجرد أن وضعت السيدة عطية الله السماعة، فإذا بها هذه المرَّة سفارة السويد تنقل لها نفس الخبر، وتقول إن السفير يرغب في زيارة الأستاذ نجيب لإبلاغه رسميًّا وتهنئته. فردت السيدة عطية الله كعادتها مبدية كرم الضيافة:

ـ فليتفضل السفير على الرحب والسعة، وسيجد الأستاذ في انتظاره.

وذهبت السيدة عطية الله إلى غرفة الكاتب الكبير توقظه من نومه، فسأل زوجته:

ـ هل هناك أمر خطير؟

فقالت له زوجته:

ـ لقد فزت بجائزة نوبل!

فأشاح الأستاذ نجيب بوجهه، وعاد إلى نومه مفهمًا إياها أنه لا يستسيغ روح الدعابة في الوقت المخصص لراحته.

(٥)

لو أن شخصًا من جيلنا فقد ذاكرته نتيجة حادث سيارة فستساعده لعبة ألبومات عمرو دياب في استعادتها جزئيًّا.

هو المطرب الوحيد في جيله الذي استمعنا إلى ألبوماته بترتيب صدورها، الأمر الذي يساعدك بسهولة على أن تربط كل مرحلة عمرية في حياتك بألبوم له.

يكفي أن أقول لك مثلًا «ما تخافيش»، فتتذكر كل ما يخصك في هذه الفترة: من ذوقك في الملابس، إلى وجوه زملاء المرحلة الذين شاركتهم غناء الـhit في الفصل أو النادي. الأمر لا ينطبق بالضبط على محمد منير، فهناك كثيرون منا اكتشفوا منير متأخرًا، واستمعوا إليه دون ترتيب زمني. هناك من استمع مثلًا إلى ألبوم «مشوار» فبدأ البحث عن ألبوم «بنتولد» فاستمع إليه في غير وقت صدوره. بخلاف أن أغنيات منير لا علاقة لها بوقت

إصدارها، فقد لا تجذبك أغنية «شبابيك» من أول استماع، لكنها في لحظة ما ربما بعد سنوات طويلة تكتشف أنها أغنية عمرك. لذلك يمكنك أن تؤرخ لحياتك بألبومات عمرو دياب دون ارتباك؛ فأغنياته في كل فترة هي بنت الفترة التي تنتهي عادة بظهور الألبوم الجديد.

يصلح إيمان البحر درويش لفترة قصيرة انقطع بعدها عن وضع لمسته على تاريخنا الشخصي لأسباب غير مفهومة. الأمر نفسه ينطبق على مدحت صالح، فالجيل الذي سرت في جسده قشعريرة ما بفعل «كوكب تاني» و«آسف على الأحلام» تخلَّى عنه صالح بدون مقدمات، واختار في لحظة ما أن يهرب من صيغة مطرب الشباب، ربما لأنه شعر أنه لقب يقلل من أهميته الفنية، فاختار أن يغني لمن هم أكبر سنًّا بأن وقف على خشبة الأوبرا يغني «٣ سلامات». علي الحجار له وضعية مختلفة، فهو شريك شريحة معينة من الجيل، كل من استمع إلى الحجار استمع إلى دياب بحكم بهجة المرحلة العمرية، لكن ليس كل من استمع إلى دياب استمع إلى الحجار؛ نظرًا لكون تجربته الغنائية تحتاج إلى مستويات ذهنية وعاطفية فوق المتوسطة، وهو ما لم يتوافر لكثيرين من أبناء الجيل الذين كانوا يتعاملون أحيانًا مع الأستيكة أم ريحة باعتبارها حلوى. التأريخ بعلي الحجار قد يصلح لمدمني المسلسلات من أبناء هذا الجيل.

(٦)

توقفنا أنا وصديقي عند استراحة ما على طريق الإسكندرية الصحراوي للتزود بما تحتاج إليه الرحلة من نيكوتين وكافيين.

والدة صديقنا المشترك الإسكندراني اتصلت تستنجد بنا.

صديقنا يعيش في اكتئاب حاد بعد رحيل شقيقه الأصغر، هجر البيت وأقام بمفرده في شاليه العائلة في الساحل الشمالي، تلفونه مغلق، لا يفتح الباب لأحد، يكتفي فقط بمكالمة كل يومين يُطمئن أهله من خلالها أنه ما زال على قيد الحياة.

كانت أمه تستغيث وتطلب تدخل الأصدقاء.

كانت المهمة صعبة، كنت أنظر إلى صديقي وهو يقاوم النوم أثناء قيادته للسيارة: «ما نمتش من إمبارح»، وأفكر أن أصارحه بالأمر، فقبل شهور كانت هناك مشاجرة كبيرة بيني وبين صديقي الإسكندراني لأنني قسوت عليه وأنا أطلب منه أن يتوقف عن إدمان المخدرات، يومها خرج من بيتي مهزومًا، لا أنسى ما حييت نظرته الأخيرة لي على باب الشقة.

كنت أعرف أنه أغلق على نفسه باب الشاليه ليحقن نفسه بالمخدرات كما يحلو له، عسى هذا أن يخلصه من حزنه على شقيقه.

اخترت الصمت.

عند مدخل طريق الساحل كان الزحام شديدًا.

ستبدأ حفلة عمرو دياب هناك في التاسعة.

(٧)

في سفارة السويد بالزمالك كان السفير يبحث عن هدية يأخذها لنجيب محفوظ. وقد وجد بغيته أخيرًا في دولاب الهدايا بالسفارة، والذي كان يضم بعض المشغولات الزجاجية التي اختار منها فازة كريستال كبيرة على شكل كأس بلورية. وفي السيارة بدأ السفير يشرح للسائق المصري عنوان الأستاذ نجيب محفوظ في شارع النيل بالعجوزة، فقاطعه السائق قائلًا:

ـ نعم، نعم، إني أعرفه.

فسأله السفير:

ـ هل ذهبت إلى هذا العنوان من قبل؟

قال السائق:

ـ لا، لكن كل المصريين يعرفون منزل نجيب محفوظ.

(٨)

بعد عام ونصف من ألبوم «هلا هلا» كانت مياه كثيرة قد جرت في النهر.

مع صدور شريط «ميال» كان الوعي بالحياة قد تغير بالدرجة نفسها التي تغير فيها الوعي بعمرو دياب. على مدى ألبومين أو ثلاثة سابقة وصلت من دياب رسالة تقول «أنا موجود»، بعد «ميال» كانت رسالة دياب أكثر قوة وتقول «أنا مهتم».

كذلك كان الحال مع بدايات فترة المراهقة، إذ أعلن الواحد عن أنه تخطى مرحلة «موجود كطفل» إلى مرحلة «مهتم» بالحياة كمراهق. فعلى هامش قفزات دياب في كليب «ميال» على مسرح إحدى الجامعات، وجرأته في أن يغني بالترنج مع تقديم فاصل في المهارات الكروية على أنغام أغنيته، بدأ الشارب يعرف مكانه إلى الوجه، مثلما بدأ الواحد يعرف طريقه إلى بائع الصحف بانتظام في محاولة لتفعيل غريزة الاهتمام بالعالم ومن فيه. كانت «ميال ميال» مفتاح هذا الفضول.

(٩)

دخل صديقي من شباك المطبخ وفتح الباب.

كان صديقنا نائمًا على كنبة في الصالون، ذقنه طويلة، فقد الكثير من وزنه، يرتدي بلوفر في عز الحر. أيقظناه برفق، وعندما أفاق لم يتكلم، كان ينقل النظر بيننا، ثم استقرت عيناه عليَّ وانخرط في بكاء شديد.

كنت أتفحص المكان، وأتجول في أركانه بعينيَّ بحثًا عن شيء ما. لفت الأمر نظر صديقي فقال بهستيريا:

ـ أنا بطَّلت!

ثم عاد إلى البكاء.

دخلت المطبخ لأحضر له بعض الماء. على رخامة المطبخ الأمريكاني كانت هناك أوراق ملونة، كانت تذاكر لحفلة عمرو دياب التي ستبدأ بعد ساعتين، عرفت فيما بعد أن شقيقه الأكبر تركها له على باب الشاليه.

من باب تلطيف الأجواء قلت له:

ـ هتقوم تحلق دقنك، وتاخد دش، تلبس وتنزل نروح حفلة عمرو دياب، أنا عمري ما حضرت له حفلة!

لم يكن الأمر سهلًا. استخدمنا القوة كما لم نفعل من قبل، كان يقاومنا ونحن نخلع عنه ملابسه ونحمله باتجاه الحمَّام، كان يقاوم بضراوة ويصرخ. كدنا أن نضعف، لكن نظرات متبادلة بيني وبين صديقي رفيق المشوار جعلتنا نتغاضى عن صراخه. كانت مقاومته تنهار بالتدريج. خلعنا ملابسنا، ووقفنا معه تحت الدش بملابسنا الداخلية، قلنا له سنعتدي عليك جنسيًّا إذا استمرت المقاومة، فضحك. كانت دموعه تختلط بماء الدش بابتسامته القديمة؛ ابتسامة الصديق الذي أحببته وكنت أخاف عليه. كان يهدأ بالتدريج. نظر إليَّ مرَّة أخرى قائلًا:

ـ آخر مرَّة أضرب كانت عندك في المعادي.. ورحمة أخويا!

(١٠)

وصل السفير السويدي إلى منزل الأستاذ نجيب محفوظ بعد ظهر ذلك اليوم من شهر أكتوبر ١٩٨٨، ليخبره رسميًّا بفوزه بجائزة نوبل، فوجد جماهير غفيرة قد سبقته إلى منزل الأديب الكبير. لم يبق للسفير إلا أن يهنئه ويقدم له «الفازة الكريستال» التي أحضرها معه. كان المصورون يلتقطون له صورًا وهو يتسلم الكأس من يد السفير، وقد نشرت إحداها في اليوم التالي في إحدى الصحف وقد كُتب تحتها: «نجيب محفوظ يتسلَّم جائزة نوبل من السفير السويدي»(*).

(١١)

في الحفل أمسك عمرو دياب بالمايك وقسم الحضور إلى ثلاثة أقسام، قال إنه سيغني، وسيسمع الرد من كل قسم على حدة، ثم يحدد الأفضل.

كنا القسم الأول. قال عمرو دياب: «من كام سنة وانا...»، لم يرد صديقي الإسكندراني. ثم توجه دياب إلى القسم الثاني،

(*) قصة نوبل نجيب محفوظ نقلاً عن مقالات الأستاذ محمد سلماوي.

فالثالث، وكان الرد يزداد قوة في كل مرَّة، ثم قرر دياب أن يعود إلى القسم الأول من جديد.

نظر صديقي رفيق المشوار إلى صديقي الإسكندراني قائلًا:

- هتضيعنا يخرب بيت أمك! قول معانا!

فضحك.

وقال دياب: «من كام سنة وانا...»، فخرج صوت صديقي الإسكندراني ضعيفًا.

قال دياب:

- لأ لسه.

قالها من جديد: «من كام سنة وانا...»، أمسكنا بكتفي صديقنا الإسكندراني وهززناه بعنف لينطق، فقال:

- خلاص خلاص.. ميال ميال.

هِدي الليل

فايزة أحمد

كلمات: عمر بطيشة

ألحان: محمد سلطان

توزيع: هاني شنودة

(١)

ـ العربية زعلانة منك يا أستاذ!

لم يكن لدى الميكانيكي أي تفسير آخر ليقدمه.

لم يكن امتلاك سيارة يومًا ما هدفًا في حد ذاته، اخترت مهنة فرضت عليَّ ألا أتوقف عن الحركة أبدًا، أعمل في مؤسسة تُقدِّم للصحفي فرصة وحيدة خلال حياته المهنية لامتلاك سيارة بالتقسيط المريح الخالي من الفوائد، بمقدم بسيط، بشرط أن تنتظر دورك، قد يطول الانتظار لعامين أو أكثر، إلا إذا قررت شراء سيارة الطلب عليها ضعيف، متوفرة لدرجة

لا معنى معها للانتظار. اخترت واحدة لم تكن مألوفة وقتها، يحذرك الجميع من كونها مجرد ورق مقوى رغم مظهرها اللافت، ومن كونها بلا ضمان حقيقي أو توكيل يفهم عيوبها ويقوى على علاجها.

كانت لديَّ فرصة أن يكون القسط سنويًّا، يتم خصمه من الأرباح في نهاية العام، وكان المقدم ينقصه مبلغ يسهل استدانته، يسهل بمعنى اعتباره ديونًا معدومة غير قابلة للسداد، مبلغ بسيط من كل صديق قريب سيتم اعتباره «نقطة العروسة»، على وعد بأن تكون السيارة في خدمتهم.

«التيسير علامة الإذن»، وكان مأذونًا لي أنْ أمتلك هذه السيارة، فأنهيت إجراءاتها في يومين، وتلك معجزة.

كان سائق رئيس التحرير الخاص صديقًا مقربًا، أحبه لأنه من رائحة زمن كبار الصحفيين، قلت له:

- عليَّ أن أستلم السيارة من طريق مصر الإسكندرية الصحراوي اليوم، أحتاج إلى خبير يصحبني في هذه الرحلة، كل ما أعرفه أنا أو غيري عن هذه السيارة مجرد معلومات شفهية، فلتشاركني الرحلة والفحص وسأمتثل لقرارك أيًّا كان.

هناك كان «عم إبراهيم» يدقق في كل تفصيلة لدرجة أرهقت موظفي التوكيل، انتحى بي جانبًا وعلى وجهه ابتسامة قائلًا:

- ع البركة.

تحركت في حمايته حتى أقرب محطة بنزين، لأن السيارة

كانت تتضور جوعًا. احتفى العمال بالسيارة، ومنحوها كل ما يليق بعروس في كوافير شعبي. خرج عم إبراهيم من المحل الصغير الموجود في المحطة حاملًا مصحفًا صغيرًا، ومعطرًا على هيئة ورقة شجر برائحة الياسمين، وشريط قصار السور للشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

(٢)

لم يكن امتلاك سيارة هدفًا في حد ذاته، كانت بالفعل ذراعي اليمنى، لكنني في أبعد نقطة داخل روحي أكره أن يمتلكني شيء، وكنت أنتظر الفرصة المناسبة لأتحرك بحرية بالمترو أو التاكسي أو الميكروباص أو سيرًا على الأقدام؛ في هذه العوالم كنت أجد شاحن بطاريتي الشخصية، وجهًا هنا، جملة هناك، مشاجرة عابرة، لافتة محل، طريقًا أكتشفه بالصدفة، كتابًا ملقى على فرشة فوق الرصيف، حرية مطلقة في المراقبة والتأمل لا يمكن مقارنتها بسجن الانبطاح أمام سطوة عجلة القيادة والمرآة الجانبية وإشارة المرور ومؤشر الحرارة.

يومًا ما صحوت على قرار مهم: لقد ترهلت أفكاري، وتيبست مفاصلي، ووهن العظم مني، سأتخلص من هذه السيارة وأعود كما كنت منذ سنوات؛ شابًّا نشيطًا يتحرك بحرية، يذوب في

الزحام، ويصادق المشي لساعات طويلة، ويلقي بنفسه في تاكسي إذا ما تأزمت الأمور، لن أبيع السيارة؛ سأتركها تستمتع هي أيضًا بوحدتها أسفل الشجرة العملاقة المواجهة لبيتي.

بعد أيام اكتشفت أن السيارة صارت جزءًا من شخصيتي؛ المقعد الخلفي كان دولابًا به من الملابس ما قد أحتاج إليه إذا ما سرت برودة مفاجئة في الجو، أو مستقرًّا لما أود أن أتخفف منه إذا ما هجم الحر، المقعد الخلفي كان أيضًا مكتبة تحتضن ما يقع في يدي طول اليوم من صحف ومجلات وكتب جديدة أو قديمة، وهي كميات لا يستهان بها، ويعرف ذلك كل صحفي أو كاتب. كانت السيارة هي «البلاي ليست» التي تضبط يومي، أختار طول الوقت ما يصلح مزاجي من موسيقى أو أغنيات، في لحظات اليوم السخيفة كنت أغلق زجاج السيارة وأرفع صوت الموسيقى لتغطي على العالم كله، أصبح وكأنني داخل كبسولة على مقاس روحي، ثم إن مشوار العودة إلى البيت متأخرًا ينقصه شيء مهم، ينقصه الاستمتاع بشوارع القاهرة الخالية على صوت أم كلثوم.

عدت إلى السيارة بشوق من عرف في السكة قيمة الحبيب الأول بعد أن تخلى عنه.

في محطة البنزين كانت عروسًا في «سبا»، خرجت تبرق مزودة بدواسات جديدة ومعطر نفاذ وبنزين فاخر وتابلوه مصقول وطاسات كاوتش تلمع، لكن ما إن خرجت من المحطة حتى توقف المحرك تمامًا.

فحصها الميكانيكي جيدًا بعد أن حملتها إلى هناك فوق ونش.

لم يجد شيئًا غير طبيعي، كان الأمر محيرًا لدرجة أنه أرسل يستدعي ابن شقيقته الكهربائي ليشاركه الفحص. طلب مني أن أشغل المحرك دون أن أضغط بنزين، فدار المحرك بالفعل قبل أن يمد الكهربائي يده.

كان التشخيص أنه «أكيد كانت حاجة مِعلَّقة وضبطت لوحدها».

شكرتهم، وقبل أن أتحرك بالسيارة توقف المحرك من جديد، فعدنا كما كنا.

حتى أذان الفجر كان السيناريو يعيد نفسه، لا أحد يقوى على إدارة المحرك، أصعد أنا فيدور، أهم بالتحرك فيتوقف.

سألني الميكانيكي:

ـ العربية مركونة بقالها أد إيه؟

قلت له:

ـ شهر ونصف تقريبًا.

قال الميكانيكي:

ـ إمممم!

ثم أطلق تشخيصه النهائي:

ـ العربية زعلانة منك يا أستاذ عمر.

سألته:

ـ وكيف أرضيها؟

فطلب مني أن أصبر حتى صباح اليوم التالي ليعيد النظر في

أمرها، لكن إذا دارت فعليَّ أن أصطحبها في مشوار طويل على طريق سريع، وأمنحها الفرصة لتجري بأقصى سرعة حتى تقفل العداد، ساعتها سيخرج الزعل منها.

ضحكت.

قال الميكانيكي:

ـ عليَّ الطلاق ما باهزر!

(٣)

عدت إلى منزلي في تاكسي.

قبل النوم قررت أن أحمِّل «فلاشة» بكل ما أحبه من أغنيات، وبكميات تكفي مشوار الإسكندرية رايح جاي، وقررت أن هذا هو أول ما سأفعله عند استيقاظي من النوم.

لن أخذل سيارتي!

لم تكن يومًا مجرد سيارة!

سنوات طويلة وأنا أضع قدمي في قلبها، وأمتطيها لتسير بي كيفما أهوى، لم تعترض يومًا على أصدقائي، الموسيقى التي أسمعها، المشاوير التي كانت محض نزوات، الفوضى التي تحيط بي، قلة اهتمامي بها، تحملت السب واللعنات وهي راضية، لم تراجعني يومًا في اختياراتي العاطفية، كانت تنسجم معي في بدايات العلاقات، أشعر بها بين يدي مرنة رائقة تتراقص مع

فرحتي في الملفات، وتضحك في المطبات المفاجئة، وتشاركني اختيار الأغنية التي تصلح كخلفية لهذه العلاقة.

ثم تشاركني أسى النهايات. لم تتردد يومًا ما أن تفعل ما يجعلني أفيق من نوبة اكتئاب أو امتعاض على هامش فراق. كنت أتحدث إلى نفسي أعنفها كيف وقعت في علاقة من هذا النوع، فانحرفت بي إلى أقصى اليسار وقد تخشبت تمامًا عجلة القيادة في واقعة نادرة في تاريخ السيارات، شغلني البحث عن حل سريع لها، لأجد نفسي بعدها وقد نسيت قصة الحب كلها.

أضغط على نفسي، وأعيد في الكاسيت سماع الأغنية التي كانت خلفية علاقة ما، حتى تحولت الأغنية الناعمة في المرَّة الثالثة إلى دبابيس، ثم يحدث أن يصبح الصوت أسرع من المعتاد، سريعًا لدرجة لا تليق بأغنية عاطفية، سريعًا لدرجة أنها جعلتني أقع في نوبة ضحك، فتوقفت على جنب أضحك لدرجة أقلقت كل من مر بي، ضحكت حتى عدت رائقًا أكثر من ذي قبل.

سترتني سيارتي ولم تفضحني يومًا: هنا قُبلة، هنا ربع ساعة قيلولة في التكييف قبل موعد عمل، هنا غيرت قميصي الذي اتسخ فجأة، هنا عشم صديق ما في أن أزفه مع عروسه وأمه وأمها إلى غياهب العشوائيات فتتغندر طوال الطريق ولا تتأفف مما تقاسيه، هنا تغشى أبصار المارة عن الرسائل التي يتركها لي

الأصدقاء بين المسَّاحة والزجاج الأمامي حتى تصلني، هنا ظل مؤشر البنزين يعلن لمدة ثلاثة أيام أنه لا توجد نقطة واحدة في التانك بينما لا أمتلك قرشًا واحدًا في البنك، وأظل في انتظار أن تتوقف في أي لحظة فلا تنقطع إلا بعد أن أخرج من مكان ما محملًا بمستحقاتي، حتى يوم أن هاجمتني الحمى بعيدًا عن بيتي وكنت أحتضر من فرط التعب، ألقيت بنفسي داخلها وكانت هي التي تقود بدلًا مني طوال الطريق حتى فوجئت أنني أسفل منزلي، كانت تعرف الطريق إلى البيت جيدًا كزوجة مخلصة.

استيقظت قبل المغرب، وضعت الفلاشة في جيبي، وخرجت وكلي شوق لملاقاتها.

أنا أحب هذه السيارة!

(٤)

عند الورشة لم أجد السيارة.

قبل أن يشرح لي أحد الصبية الموضوع، كان الميكانيكي يقترب وهو يقود السيارة، تلاقت أعيننا (أنا والسيارة مش أنا والميكانيكي)، فوجدت في كشافاتها نظرة عتاب لا تخلو من أمل في الرضا.

قال الميكانيكي إنه قام بعملية تنظيف للبوجيهات والموتور

وخلافه، وكان على وشك أن يجربها لولا أنه لمحني من بعيد فقرر أن «يلف ويرجع» تاركًا لي هذه المهمة.

سألته:

ـ أطلع على طريق الإسكندرية ازاي بعيد عن الزحمة؟

(٥)

كان الصمت مخيمًا على بداية اللقاء، خجل مني، أما هي فنادرة الكلام أصلًا.

بعد أن تخلصنا من الزحام، ولمسنا طريق الإسكندرية الصحراوي، تذكرت الفلاشة.

كنت قد أهديتها من قبل كاسيت حديثًا يسمح باستخدام الفلاشة، ثم تذكرت أن الهدية كانت لي وليست لها، مثلما يعتقد الزوج أنه قد هادى زوجته بقطعة لانجيري.

وضعت الفلاشة فانطلقت أغنية لفايزة أحمد.

فكرت لثوانٍ أنها بداية غير موفقة، فلأبحث على الفلاشة عن أغنية أخرى تصلح كمفتتح للحالة، لكن كلما تخلصت من أغنية فايزة أحمد كانت تعود من جديد، أخرجت الفلاشة وأعدتها إلى مكانها عدة مرات دون فائدة، بدأت أستخدم الطرق القديمة التي كانت تصلح مع شريط كاسيت، مثل أن أضرب عدة مرات على عجلة القيادة بالفلاشة، أو أنفخ فيها، ولكن كان واضحًا أنني مع

لهوجتي لم أضع عليها سوى هذه الأغنية، كان الليل قد هبط، وانتصف الطريق، مما يعني ضياع صوت كل الإذاعات الممكنة. أنا والليل وسيارتي وفايزة أحمد، فليكن!

كان البيانو يفرش الأرض بنغماته في انتظار أن تطل تلك المطربة التي لم أعرف واحدة أكثر منها حزنًا حتى في أغنياتها المرحة.

تذكرت كليبًا قديمًا للأغنية التي أعرفها: يجلس فيها زوجها الملحن الوسيم على البيانو يعزف، بينما هي تقف إلى جواره بفستان أحمر، تضع يدها على كتفه، وتغني بابتسامة تمسك القلب بمخالب سرطان البحر.

كانت تغني وكأنها تعرف ما الذي تفعله في هذه اللحظة في هذا المكان:

هدي الليل بصوته على جسر الصدى
وبدأت ساعاته تسافر في المدى
وغاب الزحام الزحام الزحام
وداب الكلام الكلام الكلام
ويسكت كلام اللي قالوا
ويرجع هوانا لحاله
وتفضل حقيقة وحيدة
يا نجمة سهرنا البعيدة
باحبَّك

باحبَّك

باحبَّك

وبتحبِّني

كنت متأكدًا أن السيارة هي التي تغني!

(٦)

على شاطئ البحر وقفنا، وكانت السيارة تتحدث:

- قبل أن تجلس هنا كانت في حياتي ثمة امتطاءات صغيرة لا يمكن احتسابها: واحدة أخرجتني من المصنع، وواحدة أوصلتني إلى ساحة المعرض، وأخرى قصيرة كانت على سبيل التجربة لم أنل إعجاب صاحبها، كان مترددًا لكن أمه التي تفهمه جيدًا أقنعته أنني غير مناسبة له، حسنًا أنا أيضًا لم أسترح له.

عندما التقينا لأول مرَّة في صحبة الرجل الذي كنت أعتقد أنه والدك، خمنت بعد دقائق أنك لست من النوع الذي يصطحب أهله لمثل هذه المواقف، كنت ألمح في عينيك أننا سنغادر معًا أيًّا كان رأي الرجل الذي اصطحبته.

في الطريق، تأكدت أنني لم أكن الأولى في حياتك، أعرف أنك تعلَّمت على يد واحدة، ثم عاشرت أخرى لفترة، لكنني كنت على يقين أنني زوجتك الأولى! كنت تعاملني برفق وطولة

بال من ينوي أن تكون العِشرة طويلة. وبعد أيام قليلة كنتُ قد وقعت في غرامك، كنتَ بين أحضاني قائدًا لا تقاوم جاذبيته، يقودنا بإحساسه عبر الطرق المجهولة فننجو، يُبطئ في الموعد المناسب، ويُسرع دون مقدمات، كنت أرى فيك فتى أحلامي، اللص النبيل، يسرق الفرحة ويخبئها للآخرين وليس لنفسه، رأيتك بقوة عندما سمعت مطربًا ما يغني لنا في طريق عودتنا إلى البيت ذات ليلة: «سرقت عمري من أحزاني». لم أتحمل إهانة يومًا إلا لأنني أعرف أنك لا تقصدها، ولم أغفر غضبك إلا عندما تذوقت بعضًا من رقتك، وارتضيت أن تكون علتك هي الحماقة. كان عزائي الوحيد هو أنك تعرف علتك جيدًا! بعد شهور كنت متيمة، أنا بدونك جثة هامدة، عندما يدور مفتاحك أعود إلى الحياة، أود أن أطير بك إلى حيث تحلم. كنت تحبطني بحديث عابر مع صديق لك تخبره أنك مللت وتحلم بالتغيير، لم أصدق أنك مللت بهذه السرعة! بعد فترة عرفت أنها علتك الثانية، وكان عزائي أنك تمل لكنك لا تحب التغيير!

تضع قدمك في قلبي، وتظن أنك القائد، لكن صدِّق أو لا تُصدِّق: كنت أسير بمزاجي. هل تذكر أول حادث لنا؟ عندما اصطدمت بميكروباص من الخلف، وظللت تقول للناس لا أعرف ماذا جرى! أنا كنت أعرف! هل تتذكر إلى أين كنت مُتجهًا يومها؟ كنت في طريقك إلى موعد عاطفي،

لم يكن لديَّ اعتراض يومًا ما على قصصك ومغامراتك، لكنك في هذا اليوم كنت مُتجهًا لمقابلة الفتاة الوحيدة التي لم تحبك! هل تذكر؟

هل تذكر الحادث الثاني؟ عندما طلب صديق لك أن يقودني فصدم شخصًا على دراجة! صحيح أنك تعلمت الدرس، ورفضت بعدها أن يقودني أحد غيرك، لكن كان لا بد من درس قاسٍ حتى لا تكررها!

ظللت تعتقد أنك صاحب القرار في اختيار مَن يكون برفقتنا هنا ومَن لا يستحق، الحقيقة أنا التي كنت أفعل ذلك! كنت تعتمد على إحساسك وقد كنت محقًّا، لكن أنا من أوحى إلى إحساسك، فقد شهدت من خلف ظهرك ما يسوؤك: تنزل لشراء علبة سجائر أو مصافحة شخص أو شراء شيء تاركًا أصدقاءً في السيارة، فيحدث ما لم ولن تعرفه؛ اتفاق مشبوه، خيانة، يد طويلة تعبث في أوراقك، يد أطول تسرق شريطًا أو كتابًا، نميمة قاسية، كل مَن تورط على هامش غيابك فيما يؤذيك كنت أجعل حضوره ثقيلًا مليئًا بالعكننة والعكوسات حتى تقرر ألا يكون هنا مرَّة أخرى! هل تذكر صديقك الذي أنزلته من السيارة في نهار رمضان على الطريق الصحراوي وظل ضميرك يؤنبك على ما فعلته؟ لن أخبرك ماذا فعل في غيابك، لكن حسنًا فعلت!

لم أفكر أن أعاقبك يومًا ما على إهمالك؛ سيارةٌ غيري يفوتها

موعد تغيير زيت المحرك بالستة أشهر ما كانت لتعمل مرَّة أخرى! سيارةٌ لا تزودها بالماء إلا كل سنة مرَّة لانفجرت في وجهك في أول يوم حار! كنت لا تحترم المفاجآت، بل كنت أقوى من الطبيعة، سنوات طويلة تسير بلا إستبن وبإطارات مهترئة، هل حدث يومًا أن خذلتك؟! كان يدهشك في كل مرَّة تسافر بالأسابيع ثم تعود فتجد القطط نفسها تنام فوق سقفي ولا تقترب من أي سيارة أخرى، كنت أحكي لهذه القطط عنك، كانت هي ونسي في غيابك!

يوم قررت أن تتخلى عني تمامًا لم يشغلني الأمر كثيرًا، قلت لنفسي سيعود. مر يوم ثم أسبوع ثم شهر! تمر إلى جواري كل يوم دون حتى أن تحين منك التفاتة ناحيتي! حتى عندما أخبرك البوَّاب أن سيارة أحد الجيران قد صدمتني لم تهتم ولم تقترب مني حتى ترى إصابتي ولو على سبيل الفضول! كنت أموت كل ليلة! أفكر: ما الذي قصرت فيه؟! متى كنت عبئًا عليه وأنا رفيقته في العمل والحب واللمة والوحدة والموسيقى (بالمناسبة كنت أحب ذوقك في الموسيقى ولا زلت) أنتظرك كل ليلة حتى أراك تمر سريعًا باتجاه مدخل العمارة فأطمئن أنك بخير وأتأكد أنني لست كذلك؟!

قالوا لك عني إنني من الورق المقوى، وهذا من حسن ظنك، فأنا قوية بك، ولكن الحقيقة أنا من ورق.

كنت زوجة لك! كنت تختبئ بداخلي لنجوب الأرض معًا؛

٩٠ ألف كيلو متر قطعناها معًا في الفرح والحزن! لم يكن بيننا عقد زواج، ولم أطلبه يومًا، لكن كل ما كان يؤرقني أن بيننا رخصة كُتب فيها أنها ستنتهي في نوفمبر ٢٠١٠، لم أكن أتوقع أبدًا أن تتخلى عني قبل هذا التاريخ!

سيطر الصمت على المكان! حتى صوت البحر اختفى!

ظهر في الظلام شبح كنت أراه يقترب في هدوء، كان أمين شرطة تأمل وقفتنا ثم سألني إذا كان فيه حاجة.

في محطة البنزين كنت أستعد للعودة.

بينما أفحص ماء السيارة اقترب مني شخص يسألني عن هذا النوع من السيارات:

ـ عامل إيه معاك؟

قلت له دون تفكير:

ـ ممتازة. أنا اللي وحش!

(٧)

فاتني أن أشتري «سي دي» جديدة من أجل العودة.

هل نسيت أم أن فايزة أحمد كان لديها ما تضيفه؟

تاخدنا الليالي في رحلة بِعاد

ونشتاق ويغلِب علينا العناد

...

وفجأة نلاقينا رجعنا لروحنا
مفيش غير لُقانا يطيِّب جروحنا
واقابلك وننسى اللي بينا ف عتاب

...

ويرجع هوانا وعمره ما غاب

لم أقترب من الفلاشة طوال الطريق، كانت الأغنية تعيد نفسها حتى أصبحنا أنا والسيارة والطريق وفايزة أحمد شيئًا واحدًا، كبسولة تتحرك خارج الزمن، أحاول أن أفهم لكن لا أريد، كل ما أريده فقط أن أغني..

ونسرح ونرجع لدنيانا إحنا
ونخلق من الحزن لحظة لفرحنا
وننسى اللي بيقولوا واللي يقولوه
وأقابلك خيال مستحيل هيشوفوه
ويسكت كلام اللي قالوا
ويرجع هوانا لحاله
وتفضل حقيقة وحيدة
يا نجمة سهرنا البعيدة
باحبَّك
باحبَّك
باحبَّك
وبتحبِّني

فقرة العندليب ـ الأغاني القصيرة

صافيني مرَّة

كلمات: سمير محجوب

ألحان: محمد الموجي

توبة

كلمات: حسين السيد

ألحان: محمد عبد الوهاب

تخونوه (موسيقى)

ألحان: بليغ حمدي

(١)

لا يمكن للواحد أن يعرف بالضبط لمَّا يستيقظ من نومه تلح عليه أغنية ما، لا كلماتها تعبر بدقة عن حالتك المزاجية،

ولا مطربها يحتل مكانة مهمة في قائمة الأصوات المفضلة. تظل النغمة هي البطل، هي اللي علقت بروحك في موقف عابر من ليلة سابقة ولم تشعر بها وقتها، بالضبط مثل كدمة تتعرض لها في ركبتك وتؤلمك بعدها بيوم، فتظل تتذكر أصل الإصابة مندهشًا: «ما وجعتنيش في وقتها».

أصحو أقلد بحنجرتي المشروخة المقدمة الموسيقية لـ«صافيني مرَّة»، قبل أن أغني بصوت معتل ما كتبه سمير محجوب على متن سفينة من التي كان يعمل عليها ضابطًا بحارًا قبل أن يهجر البحر ويتفرغ للكتابة والشعر، «صافيني مرَّة.. تي ريت تي تيت.. وجافيني مرَّة»، يتغير كل شيء من حولك؛ من الحمَّام إلى المطبخ إلى الشارع في انتظار التاكسي، ضوضاء عارمة في قصر العيني، ولا شيء قادرًا على أن ينسيك الموضوع، يبدو في لحظات وكأنه أيقونة تواجه بها العالم في هذا الصباح، تحاول حتى أن تنتقل داخل الأغنية نفسها من هذا الدخول إلى كوبليه آخر فتغني مثلًا: «وتروح الفكرة وتيجي الفكرة وانت ناسيني كده بالمرَّة»، لكن لا أفكار تروح أو تعود سوى «صافيني مرَّة وجافيني مرَّة».

لحنها الموجي، وقدَّمها لمطربة ملاهٍ ليلية اسمها «زينب محمد»، غنتها على المسرح لمدة عامين، إلى أن اعتزلت الغناء فآلت إليه الأغنية من جديد. تعرف على عبد الحليم في الإذاعة، كان حليم يشاركه رحلة عرض الأغنية على كبار المطربين وقتها، ذهبا معًا إلى عبد الغني السيد، وشهرزاد، وكان حليم يتفنن في

تحلية بضاعة صديقه في أن يغني معه مقاطع منها أمام الكبار حتى يحبها أحدهم فيشتريها، ولكن دون فائدة، إلى أن قرر حليم أن يغنيها. ويبدو أن الموجي كان يرى أن المسألة «كده كده خربانة»، فقال له:

ـ غَنِّ!

فانطلقا إلى عالم جديد من أرضية هذه الأغنية. لكنني الآن في التاكسي أحاول أن أنطلق إلى أي مكان بلا جدوى.

أصبحت المشكلة الآن محاولة تذكر أين علقت هذه الأغنية بي، استرجعت اليوم السابق كله محاولًا أن أصادفها في رنة موبايل، أو في راديو مُعلَّق في كشك، أو في ساعة حليم في إذاعة الأغاني في تاكسي، ربما توقفت عندها عند فقرة الوثب بالريموت بين المحطات، حاولت ولم أتذكر، ولكنني تذكرت حوارًا صحفيًّا مع الموجي يبدو ساعتها (كان تقريبًا عام ٦٦) أنه لم يكن على وفاق مع حليم؛ وهي الفترة التي اندمج فيها حليم مع بليغ، وحاول الموجي تعويض فجوة الصداقة بتقديم أصوات أخرى مثل كمال حسني (غالي عليَّ). قال الموجي عندما سأله المحاور عن حليم:

ـ أحسن ما في عبد الحليم صوته، وأسوأ ما فيه عبد الحليم نفسه!

وعندما سأل عن عبد الوهاب قال إنه المنهل الذي ارتوى منه الجميع، ولكن أسوأ ما فيه الأنانية والوسوسة.

وعندما سأل عن حليم وما أخذه من عبد الوهاب قال:
ـ أخذ كل عيوب عبد الوهاب!
لم يكتب سمير محجوب لعبد الحليم مرَّة أخرى. وأنا في لقاء عمل لا زلت أدندن بها ولكن بصوت مدغم، يسألني أحدهم عما أقوله، لا أخبره، ولكن أقول له هل تعرف ماذا فعل الموجي عندما عرف خبر وفاة عبد الحليم؟ كان الموجي جالسًا في «شبرد»، وعندما وصله الخبر أخذ يلطم حتى انساب خيط دم من أنفه، عاد إلى بيته منهارًا يتصل بالجميع يخبرهم بما حدث وهو يقول جملة واحدة:
ـ حليم مات! عودي اتكسر! حليم مات! عودي اتكسر!
في يوم تالٍ استيقظت وقد نسيت الأغنية تمامًا، لكنني تذكرت مصعدًا في بيت صديقي كنت أزوره منذ يومين وقد كتب أحدهم بخط رديء على باب المصعد الداخلي: «صافيني مرَّة شقة ٤٣».

(٢)

كنت أبحث عن أفضل نوع «ماء ورد» في محلات الحسين؛ كمادات ماء الورد تشفي العين من إجهاد التنقل ما بين شاشة التلفزيون وشاشة اللاب توب، بخلاف أنها تضفي السحر مجانًا على بعض الماء المثلج فيمتزج بل الريق بالأمل.
ثم وجدت ما أبحث عنه عند أحد العطارين، كان يضع أمامه

برطمانًا كبيرًا به ثلاث كرات مشعرة ينز منها سائل أحمر لزج، سألته عنها، قال:

ـ لو عرض عليَّ عشرين ألف جنيه في واحدة منها ما بعتها!

ثم طلب مني أن أخلع السبحة التي أضعها حول عنقي، وضع يده في البرطمان وأخرج نقطة على طرف إصبعه دعك بها السبحة فتصاعدت الرائحة الزكية، قال:

ـ كل كرة عبارة عن صرة غزال يتم استئصالها بلفها بشعيرات قوية من ذيل الحصان حتى تقع، ويتم إضافة قليل من الزيت إليها كل فترة فتطرح المسك الذي تشمه.

اعتبرتها مبالغة عطار يثق في نفسه، إلى أن مر أسبوع والرائحة تزداد سحرًا، فقررت أن أعود إليه لشراء بعض المللي جرامات. وصلت إليه فوجدت المحل مفتوحًا لكنه غير موجود، قال لي أحد جيرانه:

ـ في مشوار وسيعود بعد نصف ساعة.

على المقهى جلست أنا وصديقي ننتظر، داهمتنا فتاة صغيرة تحمل علبة مناديل ورقية تتسول بها. قالت لي:

ـ يا رب يطلعلك شعر!

فلم أهتم.

قالت لصديقي الدعوة نفسها، فخلع صديقي الكاب وظهر شعره الكثيف المجعد، فقالت له بسرعة بديهة غير متوقعة:

ـ يا رب يبقى ناعم!

ضحكت من قلبي، فقالت:
ـ هات جنيه على الضحكة اللي ضحكتهالك.
كانت تستحق الجنيه طبعًا. وظللت مشغولًا بالمهارات الذهنية التي علمها لها الشارع، وحسن التصرف، بداية من اختيار الدعاء الذي قد يرضيني، مرورًا بتغيير الدعاء لتغير المتلقي، نهاية بإدراكها أنها قدمت شيئًا تستحق عنه مقابلًا (ضحكتك).
كسر التوحد مع مهاراتها الرجل (سريح البخور) الذي دخل إلى المقهى بعدته فقلب رائحته، استوقفته أحكي له مأساتي؛ وهي أنني فشلت في شراء البخور البلدي الذي يقدم الرائحة نفسها، جربت كل المحلات، بل إنني جربت أن أشتري المكونات كل على حدة، فاشتريت «الجاوي» بالجرام، وكذلك المستكة وعين العفريت، لكنني في كل مرَّة لا أحصل إلا على رائحة «الشياط المعطر». أخرج من جعبته نطرة بخور وألقاها في الفحم قائلًا:
ـ دي ريحة الصلاة على النبي.
غاب داخل المقهى ثم رجع بورقة جرنال وضع فيها قليلًا من بخوره ولم يدقق في المقابل.
سألني صديقي عما ذكرته، فقلت له:
ـ الجاوي مادة صمغية عطرية تباع بالجرام، وقال عنه «ابن القيم» إن رائحته تسر النفس وتفرح القلب وتبسط الروح، وهو منسوب للشمس التي تسويه، لذلك فهو جالب للازدهار، يعني على الأقل بيفتح المخ. أما عين العفريت

فهي حبات حمراء توجد داخل ثمار تشبه ثمار الخروب، لكنها هشة، وكل ما أعرفه عنها أنه في وقت الطفولة كان لدى الجميع اعتقاد أنك إذا تركت بعضًا منها مع «البلي» طول الليل ستجد عدده تضاعف في الصباح.

فسألني الصديق إن كنت أصدق هذه الخرافات، فقلت له:

ـ أنا أصدق مثل كثيرين أن «العين عليها حارس» لم أره يومًا، ومع ذلك لم أعتبرها خرافات.

صمت صديقي، بينما نتابع فتاة محجبة ورجلًا ضخمًا كبير السن يجلسان، وأمامهما عازف العود يغني لهما برداءة منقطعة النظير:

آه من حيرة قلبي

وآه من دمعة عيني

كل ما اقول انساك

توحشني نارك وتصحيني

كان صبي المقهى يشجع العازف كل قليل، ويصفق معه، بينما الفتاة والرجل يجلسان في حزن غريب.

قطع الحالة مشهد جندي يشاكس أحد البائعين ويمسك برقبته، وكلاهما يضحك، لكن البائع كان يقول له بتحدٍّ:

ـ اقلع البدلة وانا أوريك.

قال أمين الشرطة للمجند:

ـ إديله على قفاه.

فضحك الجميع، لكنني تذكرت ما حكاه صديق عن أم أحد أصدقائه في الجامعة قائلًا:

ـ راحت أمن الدولة تقبض عليه فجرًا، والضابط في البيت قال للأم: «لو عايزاني أسيبلك ابنك اضربيه قدامنا بالشبشب وانا أسيبه فورًا». فمسكت الأم الشبشب، وبكل عزم نزلت على الضابط وهي تقول له: «ما اكسرش ابني قدامكم يا شوية عرر». طبعًا زميلنا نزل وهو بيتعمل عليه حفلة ضرب من كل الحملة اللي بتقبض عليه، بس فضل محتفظ بابتسامة من اللي عملته أمه.

مر الوقت سريعًا فعدنا على محل العطارة، عرف الرجل مطلبي فور دخولي فسألني:

ـ هتاخد كم جرام؟

لم تكن الجرامات غالية كما كنت أعتقد، لكنني اكتفيت بخمسة. أبديت له دهشتي من هذا السحر الذي يفرزه الغزال، فقال لي:

ـ الحوت الأزرق أكثر سحرًا، يحدث خلل ما في معدته فيلفظ من داخلها كتل هي خام العنبر الأبيض.

اندهشت من المعلومة، قال:

ـ أول عنبر لفظه الحوت كان سيدنا يونس.

في البيت أشعلت الفحم، ووضعت قليلًا من بخور «السريح» مدعومًا بالصلاة على النبي، فحدثت المعجزة؛ كانت الرائحة

تسري في البيت وعقلي مشغول بمحاولة تخمين السبب الذي أغرق الفتاة المحجبة والرجل الضخم في كل هذا الحزن، بينما عبد الحليم يعيد غناء جملة واحدة في رأسي بلا توقف:

آه من حيرة قلبي

وآه من دمعة عيني

كل ما اقول انساك

توحشني نارك وتصحيني

(٣)

ظللت أدخن إلى جوار شباك المطعم ضجرًا في انتظار فتاة أهلكتني حضورًا وغيابًا، إلى أن انتبهت على عازف الكلارينت وهو يحيي الحاضرين ثم يبدأ فقرته.

كان يعزف لحنًا مرحًا أشاع الابتسام في المكان، لكنه قادني إلى انقباض ما، ذهبت إلى الحمَّام كثيرًا، مثانتي عصبية، تذكرني هي بالأمر بالذات لحظات الانتظار، لم يكن هناك ما أفرغه سوى التقلصات. هاتف الفتاة لا يرد، لا أريد ردًّا، أتصل فقط لأنه يجب أن أفعل ذلك، أنا فارغ تقريبًا من الماء والعقل في هذه اللحظات.

عدت إلى مكاني فوجدت إضاءة المكان قد انحسرت عن الطاولات لتمنح العازف الهالة التي يستحقها. كنت أتأمله وأنا أقول لنفسي من تظن نفسك يا صديقي؟ المسيح؟ لن تشفي أحدًا

بموسيقاك البائسة، الوقت بيت فارغ متخيل، وأنت لا تبيع سوى قطع أثاث وهمية، كلاكما يمكن الاستغناء عنه بقفزة من فوق كوبري مظلم في مياه عميقة باردة، أنت تبيع شيئًا لا يمكن وضعه في قبضة اليد لتدفئها أو في الحلق لتبلل جفافه، أنت غير موجود بالنسبة لي، أنا قطعة خشب وأنت مجرد كحول.. لن نلتقي.

لم يغير تصفيق الناس له من امتعاضي، بل ازداد وطأة، لا بد أنني مجنون يهدر كل هذا الوقت في انتظار فتاة مشروبها المفضل هو الماء الساخن، تقول إنه يطهر الجسد من السموم، ما فائدة جسد خلا من السموم لا يلتزم بالمواعيد؟!

كان عازف الكلارينت في أحد أركان المسرح يرشف من كأس ما، أمسك بعدها آلته مرَّة أخرى، بينما الضوضاء تخف تدريجيًّا في المطعم في انتظار كذبته الجديدة، فانشغلت بمطاردة حركة العقرب داخل حدود ساعة يدي، كانت العقارب جثة هامدة.

وضع الجرسون أمامي كوبًا نظيفًا وزجاجة جديدة، بينما العازف يحلق هذه المرَّة بعيدًا عن المرح، وكأنه تذكر حزنًا مؤجلًا فقرر أن يشرع فيه فورًا. كان الحزن في الأغنية التي يلعبها العازف حزنًا قديمًا ومألوفًا: «تخونوه». فهدأت مثانتي فجأة، ثم شعرت ربما بنقطتين في سروالي الداخلي.

ما الذي تغيَّر؟ سألت نفسي، بينما لمحت رغمًا عني عقارب الساعة تتحرك من جديد لكن إلى الخلف، بينما العازف يأخذ خطوات واسعة باتجاه الموسيقى.

لم يكن حزنه مصطنعًا، كان يشكو دون سابق معرفة بألمه، لقد عرف للتو ما الذي يحزنه.

أعرف حزنه، جدته ماتت ولم يكن يحب غيرها، وأهلكه أنها كانت تفقد بصرها بالتدريج في آخر أيامها.

أو هو غريب عن هذه البلدة وقلبه مُعلَّق بحب فتاة تخونه كثيرًا، ربما كان هو خائنًا بما يكفي ليضيع حبه الوحيد.

لا. لقد عرف اليوم نتيجة تحاليله الطبية، فقد جاءت سليمة ولن يموت قريبًا كما تمنى، وسيمكث في هذا العذاب طويلًا.

ربما حاول ليلة أمس أن يغلق نافذة بيته فأمطرت فوق وجنتيه. يا لها من لحظة ثقيلة على القلب!

ربما اكتشف فجأة أنه لا يعرف اسمه، فقط يعرف جسده جيدًا، لكنه لا يعرف من الذي يمتلك هذا الجسد.

لا. لقد عرفت حزنه، هذا رجل فهم اليوم كل شيء.

نظر إليَّ تسألني عيناه إن كنت أصدقه؟ قلت له بل أكثر من ذلك.. أنا أؤمن بك.

كان يتوغل في الحزن ويسحبني كقبطان أعمى، بينما الفتاة تطرق على نافذة المطعم بابتسامة.

فقرة الست أم كلثوم

هوَ صحيح الهوى غلاب

كلمات: بيرم التونسي

ألحان: زكريا أحمد

أغدًا ألقاك

كلمات: الهادي آدم

ألحان: محمد عبد الوهاب

لسه فاكر

كلمات: عبد الفتاح مصطفى

ألحان: رياض السنباطي.

(١)

هوَّ صحيح الهوى غلاب؟

هذا السؤال الوجودي الذي أطلقته ست بـ١٠٠ راجل من عشرات السنين نقلًا من دفاتر بيرم التونسي، لم يكن ذا قيمة من قبل، لكن حدث أن هب السؤال بعد منتصف الليل قادمًا من راديو حارس المخبز الذي تطل عليه شرفة منزلي، لا أحد غيرنا والست في الشارع والسؤال يعيد نفسه وكأنه يطلب منك الإجابة بإصرار موغل في القسوة.

قبل سنوات طويلة قلت للأستاذ محمود عوض إنني لا أحب أم كلثوم، استوعب الرجل غرور شاب منتشٍ بشهوة تكسير الأساطير والثوابت، ثم قالها لي صريحة بأبوة أكثر غرورًا:

ـ لمَّا تكبر هتحبها.

أنا الآن كبير بما يكفي لأن أقف أدخن سيجارة في الصقيع خوفًا على نقاء الهواء الذي يتنفسه أهل المنزل، وصوت الست يقلب تربة الروح بمعول ألماظ، وتسأل وأنا أفتش عن الإجابة: «هوَّ صحيح الهوى غلاب؟». الآن أنا منتشٍ بعدم العثور على إجابة، وكذلك الست التي وقعت في غرامها بعد أن كبرت.. «ما اعرفش انا».

(٢)

أغدًا ألقاك؟

قبل سنوات كان مشوار الصعيد بالقطار يبدو مزعجًا من حيث فرحة الصعايدة باختراع بث الأغنيات عبر أجهزة الموبايل الحديثة. يزعجك الصوت العالي، لكن الأكثر إزعاجًا هو الذوق نفسه، ما بين سذاجة الأغنيات الشائعة شعبيًا أو الخشوع المفتعل في صوت مقرئ الخليج. يندر في مشوار الساعات السبع أن تصادف ذوقًا يعبر عنك، مَن يعبرون عنك غالبًا يستمعون إلى أغنياتهم المفضلة عبر سماعات شخصية.

لكن هذه المرَّة كانت السيدة العجوز المتشحة بالسواد ونظارة طبية عريضة شفافة اللون، نحيلة، يتدلى مصحف ذهبي من سلسلة في عنقها، تطلب الشاي بدون سكر من عامل البوفيه، وحيدة بما يكفي لأن تظل شاردة عبر نافذة القطار التي لا تكشف عن شيء سوى ظلام دامس تقطعه كل فترة أنوار ضعيفة منبعثة من بيوت فقيرة على جانبي شريط السكة الحديد.

كان السؤال هذه المرَّة يأتي من الموبايل الذي وضعته في حجر فستانها: «أغدًا ألقاك؟». السؤال الذي التقطته الست من

روح الهادي آدم المتوثبة للقاء لن نعرف يومًا من هو طرفه الثاني، بالضبط مثل تلك السيدة النحيلة.

كانت خيالات شريكها الذي لم يرافقها في رحلة القطار تونسني مع صوت الست، هل لبست السواد من أجله؟ هل فارقها مبكرًا أم أنه قطع معها من الطريق ما يكفي لطمأنتها؟ هل تنتظر غدًا لقاءه حتى لو كان في الأرض التي استقر فيها؟ كانت الست تجاوب:

وغدًا تأتلف الجنة أنهارًا وظلا

وغدًا ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولى

وكانت السيدة النحيلة تهز رأسها، تؤمِّن على الفكرة، بينما كلي شوق لأن أقف في منتصف المربع الذي رحل منه ثلاثة أضلاع وبقي ضلع واحد يميل برأسه على شباك قطار قديم ينتظر الوصول.

(٣)

لسه فاكر؟

البيت المجاور لنا كان أهم ما يميزه شرفة صغيرة بسلالم تقود إلى مضيفة صغيرة، كان أطفال البيت أصدقاء، في يوم وجدت والدهم يرسم على حائط هذه الشرفة صورة لأم كلثوم بنظارتها السوداء الشهيرة والشعر الملموم في كحكة لا تخلو

من وقار، بهجةٌ ما حلت في القلب كطفل يتابع مهارة ما على الطبيعة. سنوات طويلة وأنا أمر بهذه الشرفة فألقي نظرة على الست وألقي السلام، أو أجلس مع الأطفال في قلب الشرفة في انتظار «الكيكة» التي تعدها الأم بينما رائحتها تخبرنا باقتراب نضجها، إلى أن رحلت الأسرة وبقي المنزل، ورسم الست يبهت يومًا بعد يوم، ويتآكل ببطء، إلى أن هبط سكان جدد محوا كل ما تبقى من صورتها.

عاد أحد الأطفال كبيرًا ذات يوم ليشارك في واجب عزاء، ظللت طوال العزاء أتحين لحظة مناسبة لفتح ذكريات الطفولة، كلمته عن رسمة الست لكنها لم تكن حاضرة في ذهنه، أحزنني الأمر والتمست له العذر، قلت ربما لأنه كان أصغر الأطفال ساعة الرحيل ولا يتذكرها.

بعد شهور أرسل لي طلب صداقة على الفيس بوك، فرحت به. بعدها أرسل لي صورة لعائلته قبل أن ترحل عن البلد؛ صورة نصف مهترئة نقلها بكاميرا الموبايل من ألبوم العائلة، كانوا قد اصطفوا في الشرفة وخلفهم صورة أم كلثوم على حالها القديم، وفي رفقة الصورة رابط أغنية تحمل السؤال الذي كتبه عبد الفتاح مصطفى خصيصًا لهذه اللحظة: «لسه فاكر؟»، سهرت في غرفتي طول الليل أمام الصورة، بينما تنبعث من اللاب توب رائحة الفانيليا.

احلف

بهاء سلطان

كلمات: مصطفى كامل

ألحان: عصام إسماعيل

كان ماجد هو الصحفي الوحيد الذي يأتي إلى الجريدة مرتديًا بدلة كاملة، ويحمل حقيبة كبيرة، ولا يخلع نظارته الشمسية إلا بعد وصوله بساعة يكون قد أجرى خلالها مكالمة مع خطيبته وتناول قهوته وعبَّأ الغرفة بدخان كثيف وعلق على ما يقوله زملاؤه بنكات مركبة تثير الامتعاض ولا تضحك أحدًا سواه. كان يضحك بمفرده فيهتز جسده الممتلئ وهو يصفق لنفسه على النكتة بصدق وامتنان، تلك هي اللحظة التي كنت أحبه فيها.

عندما أصر على اصطحابي معه إلى إمبابة لنتناول معًا الكرنب الذي أعدته والدته، اكتشفت أننا سنتناول الكرنب في محل البويات الذي يمتلكه والده، لم تكن دعوة الغداء هي الأصل، كان

ماجد يريد أن يحكي لأحد عن خطيبته التي يعشقها، فاختارني أنا لهذه المهمة.

كان يتحدث كعاشق لم يعرفه الكوكب من قبل، يمكن اختزال وجهة نظره في جملة واحدة: «يا عمر دي لما بتقولي وحشتني بطني بتكركب»، ثم قال:

ـ عارف أنا عامل زي مين؟ عارف عماد حمدي في فيلم «لا تأخذني معك»؟

حتى يومنا هذا أفتش عن فيلم بهذا الاسم دون جدوى، لكنني كذبت وقلت له أعرفه حتى لا أفسد مزاجه. كانت الزبائن تقطع جلستنا، وكلما سأله أحد عن بضاعة كان يقول له: «لا والله مفيش». عندما لاحظ أنني لا أرتاح لما يحدث قال:

ـ أصلي أنا ما باحبش أبيع بويه.

في الخلفية كان يدور ألبوم لمطرب جديد اسمه بهاء سلطان، ثم بدأت أغنية راقصة اسمها «احلف»، كان ماجد في قمة اندماجه وهو يحكي عن قصة حبه، فوقف يرقص ويهز «كرشه» ويردد كلمات الأغنية فرحًا:

علمني الحب كله
من غير ما أدفع تمن
دوقني الحلو كله
حببني في الزمن
احلف

مر أكثر من يوم دون أن يظهر ماجد في الجريدة. هاتفته، فطلب مني أن أمر عليه في محل والده.

أعادت إليه أسرة خطيبته الشبكة، وأنهت الموضوع طالبة منه ألا يعاود الاتصال بها.

كان ماجد شبه منهار، لا يؤلمه انهيار قصة الحب قدر ما يؤلمه يقينه بوجود شخص آخر في حياة خطيبته. كان يشعر بذلك طول الوقت لكنه لم يواجه الأمر. كان ماجد جادًّا تمامًا وهو يستشيرني في مسألة أن يقذف وجهها بماء النار. أخرج لي من بين علب البويه زجاجة ماء نار أعدها للأمر الذي كان يتوقف على كلمة مني. شعرت بالخوف فعلًا. أجلس الآن أمام شخص فقد اتزانه. حتى عندما دخل علينا والده وطلب مني أن «فوقه يا عمر»، صرخ ماجد في وجه والده لسبب لا أفهمه قائلًا:

ـ إنت السبب! إنت السبب!

ضرب الرجل كفًّا بكف ثم انصرف.

كنت أتابعه يوميًّا بالتلفون إذا ما غاب عن العمل، في الوقت نفسه تبدلت هيئته، راحت البدلة الكاملة وأصبح يأتي إلى العمل مرتديًا ترننج وقد أطلق لحيته. يشرب قهوته ويدخن ولا يتحدث إلى أحد حتى ينصرف. أتحاشى أن أقتحم أحزانه وأكتفي بقول: «أنا موجود لو احتجتني في أي لحظة».

اتصل بي قائلًا:

ـ عمر أنا عايز أسكر.

كان في حالة يصعب معها رفض أي طلب له.
قلت له:
ـ وماله.
قال:
ـ أعرف كباريه في شارع الهرم سأقابلك ونذهب معًا.
كان الكباريه فارغًا تمامًا، أنا وهو وبعض العاملين.
سأل ماجد الجرسون عما يمكن أن نشربه.
قال الجرسون:
ـ كل شيء ما عدا الخمور! ممنوع تقديم الخمور في ليلة نصف شعبان كل سنة وانتو طيبين!
سأله ماجد إن كان تقديم الخمور ممنوعًا عندهم فقط، فقال له الجرسون:
ـ في كل المحلات بما فيها محلات بيع المشروبات.
قال ماجد:
ـ هات لنا اتنين قهوة مضبوط.
كنا ندخن ونشرب القهوة في صمت.
أشار ماجد لأحد العاملين فاقترب منه، قال له ماجد:
ـ ما تشغلوا لنا قرآن بمناسبة نص شعبان، أو حتى بمناسبة العزا اللي احنا قاعدين فيه ده!
قال له الجرسون:
ـ ممنوع نشغل القرآن!

قال ماجد:

ـ لا خمور ولا قرآن؟ ده انتو رايحة منكم دنيا ودين!

ثم تلاقت أعيننا فانفجرنا في الضحك.

بعدها بأسابيع في فرح شقيقة صديق مشترك لعب الدي جي أغنية «احلف». تذكرته عندما كان يرفرف كعاشق رقيق وهو يغني الأغنية نفسها في محل البويات، اختلست نظرة ناحيته فوجدته يهز رأسه مستحسنًا الجو العام، فاطمأن قلبي لفكرة أنه قد تجاوز أزمته.

أثارت الأغنية بهجة دعت الدي الجي إلى إعادة تشغيلها.

نظرت إلى ماجد هذه المرة، فوجدته يهز رأسه استحسانًا دون أنْ يشعر بدموعه، كانت دموعه تنهمر في صمت لكنه كان ينكرها، ثم استسلم لها، ثم قرر أن يمسحها بيديه الاثنتين كالأطفال.

تزوج ماجد ابنة خالته وأنجب منها، ثم تُوفي زوج ابنة خالة أخرى تاركًا لها طفلة، فتزوجها، ثم اشترى بيتًا واسعًا يعيش فيه مع زوجتيه وخمسة أطفال. قبلها كان قد هجر الصحافة وتفرغ لتجارة الملابس التي اتخذ لها مقرًّا محل بويات والده القديم بعد أن أقنعه بتغيير النشاط.

إيدي بتدوَّر على إيدك

علاء عبد الخالق

كلمات: عماد حسن

ألحان: جمال لطفي

عندما كنت طالبًا جامعيًّا، كان حمادة يزاملني في الكلية وفي الإقامة بالمدينة الجامعية، كان صعيديًّا ملتزمًا دينيًّا إلى درجة لا تصل إلى التطرف ولكنها تقف عند حدود الوقار بحكم كونه عذب الصوت يؤمُّنا في الصلاة في الكلية أو المدينة الجامعية، الأمر الذي جعله يحافظ على سُمعته بالابتعاد عن مواطن الشبهات مثل السينما والكرة والموسيقى والحديث إلى الزميلات.. نشأت علاقتي به عقب مشاجرة مع أحد أفراد الجماعة الإسلامية في المدينة بسبب إصراره على إيقاظي لصلاة الفجر.. انتهت المشاجرة بتعنيف حمادة له والاعتذار لي بوقار أرغمني على الوقوف خلفه في أول صف مستمتعًا

بالصلاة وبصوته العذب، بعدها خرجنا لتناول الإفطار على عربة فول.

في إحدى المرات كنت أحلق ذقني في غرفتي مستمعًا إلى ألبوم «علشانك» لعلاء عبد الخالق، طرق الباب وكان الصعيدي.. دخل وتعمَّدت ألا أغلق الكاسيت وأن أتابع رد فعله في المرآة.

شاهدته قلقًا ينظر ناحية الكاسيت ثم ينظر ناحيتي، كان علاء عبد الخالق يغني وقتها:

إيدي بتدوًّر على إيدك وانا وسط الزحام
محتاج أشوفك ألمسك على كتفك الطيب أنام

شاهدت صديقي وهو يستسلم بالتدريج لصوت علاء عبد الخالق، نظر ناحيتي في المرآة وسألني:

ـ هوَّ مين الأخ اللي بيغني؟

فأجبته.

قلت له:

ـ ممكن تطفي الكاسيت لو عايز.

فهز رأسه معترضًا، وراح يستمع بتركيز، عند مقطع في الأغنية يقول فيه علاء:

باتمنى لحظة لقاك.. وباستنى ف رجوعك
محتاج أصلِّي وراك.. واتوضى بدموعك

فوجئت بصديقي يمسح دموعه.

ـ مالك يا حمادة؟

قال لي:

ـ النشيد ده فكرني بأبويا الله يرحمه.

كتمت ضحكتي قدر المستطاع، وقلت له:

ـ أولًا، ده مش نشيد. ثانيًا، خد اقرأ مكتوب إيه قدام اسم الغنوة دي على الشريط.

كتب علاء عبد الخالق: «إهداء إلى أبي».

طلب صديقي أن يستمع إليها مرة أخرى، ثم أخذ الشريط وانصرف.

جمع بيننا فضول شابين لم يجربا العيش في القاهرة من قبل لاكتشاف عوالمها المجهولة، كنا نصعد إلى أتوبيسات النقل العام عند بداية الخط، ونجلس إلى جوار النافذة بينما الأتوبيس يتجول بنا في شوارع القاهرة حتى يعود بنا إلى النقطة نفسها من جديد، من شرق العاصمة إلى غربها، ومن عشوائياتها إلى مناطقها الراقية، وعندما نجد منطقة جوها العام يغري بالنزول كنا نغادر الأتوبيس لنتجول فيها سيرًا على الأقدام، كانت محصلة الجولة أنني قررت شراء منطقة الكوربة، أما حمادة فقد قرر أن يشتري المعادي القديمة، لكنه قال إنه سيصلي أولًا صلاة استخارة.

انتهت لعبتنا في يوم كنا في أتوبيس ٨١٥ في صباح يوم شتوي، كنا على مشارف الكيت كات، في ممر الأتوبيس يقف

بالقرب منا رجل وزوجته. كانت زوجته تتحدث إليه بصوت خفيض وهي تضع يدها على فمها، وكان الزوج صامتًا تمامًا. بدا من حركة يد المرأة أنها منفعلة قليلًا. لاحظت أنها لم تتوقف عن الكلام. فجأة صرخ الرجل قائلًا: «كفاية.. كفاية بقى!» بينما ينهال عليها صفعًا هستيريًّا.

لا أعرف كيف يمكن شرح هذا.. لكن حال الرجل كان يدعو للشفقة أكثر من حال السيدة التي تنهال فوق وجهها الصفعات. كان الرجل يائسًا ومستنزفًا، ووجدنا جميعًا صعوبة في إبعاده عن زوجته، وما إن توقف الضرب حتى فقد الرجل وعيه وسقط أرضًا وفشلت كل محاولات إفاقته.

قال سائق الأتوبيس إن الرجل مات.

أصيب حمادة برعشة، وزاغت عيناه، ولم يعد قادرًا على الكلام.

حملته ونزلت به من الأتوبيس وأجلسته على الرصيف.

كان يتنفس بصعوبة وأنا لا أعرف كيف أتصرف، أشار لي أن أجلس إلى جواره قائلًا:

ـ هابقى كويس! هابقى كويس!

أتذكر اللحظة التي استقرت فيها محبته في قلبي إلى الأبد.

في اليوم الأخير في امتحانات البكالوريوس مررت أثناء خروجي من الجامعة بشلة أولاد وبنات تجلس في هدوء تام، بينما حمادة يتوسط هذه الشلة بهدوئه ووقاره المعتاد، كان

أكثرهم جاذبية وحضوره يحظى بالاهتمام، وكان صوته يصدح مخترقًا صمت الجميع مغنيًا: «إيدي بتدوَّر على إيدك».

تلاقت أعيننا، فلمحت في عينيه الدموع نفسها التي رأيتها في غرفتي.

باحبك

علي الحجار

كلمات: جمال بخيت

ألحان: أحمد الحجار

في أول أيام الدراسة الجامعية كان نشاطي المفضل هو الجلوس أسفل شجرة كبيرة في أحد أركان الساحة الصغيرة ممسكًا بكتاب، واضعًا سماعات الووكمان في أذني، محاولًا الاندماج في التجربة بالتعود على المشوار وتأمل المكان ومحاولة تحويل الوجوه الغريبة التي تروح وتجيء إلى وجوه مألوفة تذيب الحاجز الذي ما زال قائمًا بيني وبين التجربة.

اقترب مني عماد ثم جلس إلى جواري وسحب سماعات الووكمان من أذني بدون استئذان، وسألني:

ـ بتسمع إيه؟

كنت بالصدفة أستمع إلى حكيم.

لاحظت ابتسامة عريضة على وجهه، سألني بعدها إن كنت قد أضعت أسبوعين جالسًا في هذا المكان متوحدًا لأستمع إلى حكيم.

أخرج من حقيبة ظهره الصغيرة شريط على الحجار «في قلب الليل»، وقال إنه سيأخذ شريط حكيم ويعطيني شريط الحجار بدلًا منه.

سألته:

ـ بدل يعني؟

قال:

ـ لا. إنت هتاخد الشريط ده تنضف ودانك وأنا هاخد شريط حكيم أديه لأمي.

بعد أيام قليلة كنت أدخل معه إلى بيته ورأيت أمه لأول مرة.

كانت تجلس على مقعد متحرك وقد أسلمت أصابعها لامرأة ما تقص أظافرها وتلونها.

ابتسمت لنا، فلمحت ارتعاشة خفيفة في ابتسامتها.

قال عماد:

ـ ماما.. عمر، بتاع شريط حكيم.

ضحكت الأم قائلة:

ـ آه.. لولو لووو لولو.

ضحكت، وضحك عماد، وضحكت عاملة المانيكير، أما أنا فلم أفهم.

في ألبوم حكيم أغنية اسمها «ياما قالوا عليك يا ليل»، وكانت اللزمة الرئيسية فيها «لولو لووو لولو».

في غرفة عماد قال لي:

ـ كانت الأغنية مفاجأة عندما استمعت أمي إليها. هي تؤمن أن أبي لا يقول جملة مفيدة أبدًا، وكلما سألتها: «وماذا قال أبي في الموضوع الفلاني؟» كانت تقول دائمًا: «ولا حاجة.. لولو لووو لولو».

كانت سعادتها عظيمة عندما اكتشفت رجلًا آخر على الكوكب يتحدث مثل أبي.

دخلت علينا فوق كرسيها المتحرك تسألني إن كنت أحب اللازنيا. قلت نعم سريعًا مدفوعًا بقوة الخجل. كانت ذكية بما يكفي لأن تسألني:

ـ إنت عارف هي إيه أصلًا؟

ضحكت ووقعت في غرامها، قالت:

ـ على العموم أنا كنت باهزر المنيو النهارده سبانخ.

بعد الغداء سألني عماد عما أعجبني في شريط علي الحجار.

قلت له:

ـ أغنية اسمها «باحبك».

سألني:

ـ هل تعرف أكثر ما يعجبني في هذه الأغنية؟ يقول الحجار: «أحبك تبتدي البدايات.. تاخدني ضحكتك بالذات». كلمة

«بالذات» تخطف قلبي، وتجعلني أسترخي. لا أعرف سببًا واضحًا، لكن كل مرة تصل الأغنية فيها إلى هذه الكلمة أشعر بدقات قلبي تتسارع. هل لديك تفسير؟

فكرت قليلًا ثم عثرت على إجابة ما.

قلت له:

ـ ربما لأنها كلمة بروحين، تقدم فكرتين في لحظة واحدة، فكرة التخصيص، والتأكيد.

يكبرني عماد بأربعة أعوام، رحل والده في حادث سيارة، بعدها أصيبت الأم بأكثر من جلطة حتى استقرت على مقعد متحرك، هو الابن الوحيد، فاته امتحان الثانوية العامة مرتين، ولم يتقدم له إلا بعد أن استقرت حالة والدته، هو في السنة الدراسية الثانية، لكنه وصل إليها محملًا بمادتين من السنة الأولى، قرر عماد أننا سنستذكرهما معًا في بيته.

بمرور الوقت أصبح بيت عماد بيتي، لا أتذكر كيف حدث هذا، لكن أتذكر أنني يومًا صحوت على صوت والدة عماد تقول لي:

ـ إلحق بتاع الميه جايب فاتورة بخمستلاف جنيه وعايز يسحب العداد.. قوم اتفاهم معاه.

أنهيت المشكلة بورقة من فئة العشرين جنيهًا.

سألتني الأم عما فعلته، قلت لها بعفوية:

ـ اديته رشوة.

قالت لي باستنكار:

ـ رشوة؟! اسمها الشاي، إكرامية، حليت بُقه، اديته يجيب فاكهة للعيال.

قلت لها:

ـ آسف! اديته رشوة يجيب بيها فاكهة للعيال.

ضحكت الأم حتى دمعت عيناها.

يعرف عماد أن الأغنية التي يستمع إليها تحمل فنًّا جميلًا، لكنه لا يعرف كيف يعبر عن ذلك، بعد أن كشفت له ما أعجبه في أغنية علي الحجار، قام بتعييني مترجمه الخاص، نسهر الليل يعرض عليَّ الأغنية لأقوم أنا بتحليل حلاوتها. كانت رفقته مدرسة علمتني الكثير. كان يقول لي دائمًا:

ـ ستحترف الفن، لكن لن أعترف بك حتى تكتب أغنية بها جملة أحلى من «تاخدني ضحكتك بالذات».

كان فرح عماد هو أول فرح أحضره لصديق، أصرت أمه على أن أرتدي رابطة عنق، هربت منها كثيرًا، إلى أن فاجأتني قبل أن نتحرك من المنزل بواحدة هدية طلبت مني أن أجلس على ركبتي أمامها لتربطها لي بنفسها.

لم يربكني في حياتي كلها شيء مثل الرعشة اللاإرادية التي كانت تسري في يدها وهي تعقد لي رابطة العنق، عندما فكرت أن أمد يدي لأساعدها وجدت في يدي رعشة مماثلة.

طوال الفرح كنت أنا المسؤول عن قيادة كرسيها المتحرك، كانت تقدمني للناس قائلة:

ـ عمر، أخو عماد الكبير.

يومًا راحت في النوم على مقعدها المتحرك وهي تشاهد التلفزيون مع زوجة ابنها، ثم استيقظت وسألت:

ـ عماد لسه ما جاش؟

وعندما وصلتها الإجابة بالنفي، قالت:

ـ مش عارفة واحشني ليه؟

ثم راحت في النوم مجددًا ولكن دون عودة!

في ليلة غاب فيها القمر

محمد محيي

كلمات: أحمد السيد هلال

ألحان: مصطفى عوض

توزيع: فهد

(١)

في لحظة تتماس فيها فكرة الحياة مع الموت، وتبلغ العدمية في روح الواحد أقصى درجاتها، انسحبت من العاصمة في صحبة صديق باتجاه العريش، حيث يمتلك شاليهًا ببلكونة خشبية تطل على البحر المتوسط في أتعس حالاته؛ حيث رمال خشنة بائسة، وشاطئ مهجور ذي شعبية منخفضة في أوساط المصريين، وممر ثابت لقطعان الماعز والخراف تقودها مراهقة بدوية تلتزم السير بمحاذاة الشط حتى تصل إلى مقر قبيلتها في الشيخ زويد، عمَّ كانت تفتش بخرافها على الشاطئ

حيث لا طعام يناسبها؟! أغلب الظن أن تلك الفتاة كانت تفتش عن نفسها.

(٢)

تنقطع الكهرباء ليلًا عن الشاليه، نبهني الصديق، كنت أرى تلك التفصيلة هي ما ينقص الرحلة، جبت الشاطئ بحثًا عن زجاجات المياه المعدنية الكبيرة، وجدت عددًا لا بأس به، قمت بقطع رقبة كل زجاجة وحشو ما تبقى منها بالرمال، ثم اشتريت ما يكفي من شموع، وزرعت في رمال كل زجاجة واحدة وأشعلتها، ثم أحطت بها سور الشرفة الخشبية، ثم تأكدت من أنني أمتلك ما يكفي من بطاريات للووكمان، وسجائر، وشاي رخيص بمرارة تناسب الاكتئاب؛ ١٢٪ شاي سيلاني والباقي نشارة خشبية تسمح للمشروب أن يترك في الحلق أقرب طعمٍ ممكن للحياة.

شريط كاسيت واحد كان متاحًا لأنني لم أصطحب أيًّا منها استمرارًا للعدمية، لكن شقيق الصديق كان قد ترك في الشاليه شريطًا مكتوبًا عليه «أحزان محمد محيي»، هكذا أصبح لكل شيء في الرحلة معنى!

(٣)

أنا أحب محيي (هكذا نسميه) على الرغم من أن هذه المحبة جالبة للسخرية، لا يرتاح البعض لصوته، وهو أمر لم يثنني عن إعلان المحبة يومًا ما. يعشق كثيرون فريد الأطرش الذي لا أرتاح له مطلقًا، وهناك شعوب تذوب عشقًا في جورج وسوف الذي يرهقني دومًا في الإمساك بحلاوة ما تطل من حنجرته. لم أتوقف يومًا عن احترام أذواق الآخرين، والإيمان بأن القدر لم يكن ليكتب النجاح لأصوات ما لولا أنها تهوِّن على ما يشبهها من أرواح المستمعين. هناك تماس ما بين روحي وصوت محمد محيي، لم تتعثر مرَّة واحدة في الإنصات لخامة صوته (التي ربما ظلمت تجربته)، حزن صادق في صوته كان يعينني دومًا على ذلك، هو مطرب لا يقول غالبًا إلا ما يعبر عنه، لذلك تستقر كلماته دائمًا في مكانها الصحيح عندما أقابلها عن عمد أو صدفة.

«في ليلة غاب فيها القمر»، كان محيي يغني بحس قريب من التجربة الرحبانية، لم أستمع إلى بقية الشريط، ظللت أستمع إليها فقط، وكلما انتهت أعدت الشريط إلى بدايته باستخدام عود كبريت خشبي حفاظًا على البطاريات.

(٤)

«عايشين الأيام بين جنة ونار»، هكذا وبهذه البساطة قال محيي ما كنت أشعر به، لم ألتق محيي يومًا إلا والبسمة تغطي وجهه والحفاوة تسبقه، في منزله أو في أحد الاستوديوهات أو ضيفًا على برنامج أكتبه، تذكرت أن علاقة محيي بالغناء تتمثل في أنه «ما بيشتغلوش»، هو لا يعمل مطربًا، هو يغني فقط، يمكن ملاحظة ذلك في اختياراته الغنائية، كان أولى به أن يختار أغنيات تجعله يأكل عيشًا من الأفراح والحفلات والمناسبات المرحة، لكنه آثر أن يقول ما لا يمكن الاستماع إليه إلا في شرفة خشبية في ليلة باردة تطل على شاطئ مهجور. محيي يحمل همي كمطرب أكثر من هم نفسه، فما الذي كسبه من شريط كاسيت مزور به ثلاثون أغنية لم يكن يليق بها سوى عنوان واحد: «أحزان»؟ محيي بالمصرية الدارجة «فقري»، لكن المدهش في هذا الفقري أنه ما زال مستمرًّا بينما يتساقط رفاق جيله الذين كانوا يتنقلون بين عدة أفراح وحفلتين وخمسة ملاهٍ كل ليلة، طموحه كان ما بين أن يغني ليرتاح، وأن يقدم قليلًا من الونس لمن هم على شاكلته وسط موجة ساخرة من الطرفين. انتهت السخرية وما زال محيي مستمرًّا وكذلك الأحزان.

(٥)

هل سأجلس الليل كله أستمع لأغنية واحدة؟

قلت لنفسي: ولِمَ لا؟

هذه الليلة اسم على مسمى: ليلة غاب فيها القمر.

كنت منتشيًا لدرجة أنني فكرت كيف يمكن لواحد أن يدخل أغنية يحبها ليتمشى بداخلها!

كان محيي يقول: «بتعدي السنين علينا وتفوت في حكايات»، وأنا كنت أبحث عن ثغرة لأتسلل منها إلى الأغنية لأتأمل نفسي وأنا أضيع الحكايات وأتلفها.

(٦)

محبو محيي يشبهونه، يجرون بقوة وإيمان بالغ حتى يصطدموا بالحائط فيعتبرونه انتصارًا يشبه انتصارات جاهين القديمة: «ما دام بالنشوة قلبي ارتوى». كانت أنغام ضيفة برنامج ما واتصل محب لمحيي يسألها هل يمكنها أن تقدم دويتو مع مطربه المفضل؟ تلعثمت أنغام كثيرًا، ثم قالت إن أولادها يحبونه وإنها ستفعل ذلك إذا طلبوا. فقال لها المتصل ضاحكًا: «اعتبريني زي أولادك».

(٧)

أحب محيي لأنه يبدو طوال الوقت كصديق يقف إلى جوارك، يعلمك كيف يمكن للواحد أن يجد معاني كثيرة وهو يقف أمام الشباك يتأمل مشهد الروح وهي تحلق أمامك في فسحة من سجن الجسد، خلف هذا المشهد تقبع راحة ما لا يعرفها إلا المتوحدون.

«عايش لسه الحب فينا مش هاين أكيد»، كان محيي يؤكد على الفكرة، بينما الشمس تطلع على الشرفة الخشبية حمراء تسر المكتئبين، وقد بث محيي في القلب بعض الونس الذي بدد قدرًا من الضيق. كانت البطاريات تضعف وصوت محيي يختفي بالتدريج، بينما تهل على الشاطئ من بعيد الفتاة البدوية في مشوار جديد.

الكون كله بيدور

محمد منير

كلمات: عبد الرحيم منصور

ألحان: حسين جاسر

توزيع: يحيى خليل

(١)

كان محمد منير لغزًا كبيرًا في بداية معرفتي به. البداية كانت من طرف عمي الذي كان يعيش في الكويت. كانت العادة وقتها أن يرسل المغتربون إلى أقاربهم شرائط كاسيت بأصواتهم يتحدثون فيها من طرف واحد عما يحدث معهم، وعن أخبارهم، وأحلامهم، ومشاكلهم، وافتقادهم للأقارب الذين يذكرونهم بالاسم واحدًا واحدًا. امتلأت البيوت المصرية خصوصًا في الأقاليم في منتصف الثمانينيات بشرائط كاسيت ماركة «تي دي كى» أو «باسف» أو «أمير» محملة بأصوات

المغتربين وهمهمات أطفالهم الصغار بالقرب منهم أثناء تسجيل هذه الشرائط.

وصل واحد منها إلى أهلي بعد وفاة جدي. في فترة الظهيرة دخلت البيت وعرفت صوت عمي القادم من الكاسيت الفيليبس الموجود في غرفتي.

دخلت إلى الغرفة، فرأيت دموع أبي تنهمر، فيما يبدو أن حديث عمي عن رحيل الجد قد أثار شجون أبي. لم أفهم الموضوع، واحترمت دموعًا كانت المرَّة الأولى والأخيرة التي أراها فيها، وخرجت من غرفتي.

(٢)

كبيرًا في مكان آخر، في العاصمة، بعيدًا عن مدينتي، توقفت أمام محل شهير من أجل مشروب مثلج، اخترت التمر الهندي، مشروبًا يروي ويترك في الروح إثارة ما في الوقت نفسه. كنت وحيدًا في هذه اللحظة أمام المحل، بينما رجل كبير يرتدي جلبابه الصيفي الأبيض قد جلس على كرسيه في أقرب ظل إلى المحل، لمحته شاردًا، كنت أنا أيضًا مشغولًا بأمور شتى، تلاقت أعيننا، قلت له على سبيل المؤانسة:

ـ خليها على الله!

قال لي بإيمان مطلق:

- أهل الحب صحيح مساكين؟

ثم صمت وأشاح بوجهه بعيدًا حتى انصرفت.

كان هناك سؤال كبير يدور في ذهني: ما نوع الكتابة الذي يستحق الإخلاص والتفرغ التام؟ كانت جملة الرجل مفتاحًا للحل، قلت لنفسي سأتفرغ لكتابة الأغاني؛ لا يوجد طريق لتوصيل الفكرة أقصر من سطرين في أغنية تحرسهما الموسيقى وصوت أمين على الفكرة وهو ينقلها إلى وجدانك. رجل ما لا أعرفه، لديه مشكلة حاول أن يشرحها لي فخانته الكلمات، لكن سطرًا في أغنية لأم كلثوم أنهى المسألة على ما يرام بالنسبة له، ملخص ما يعانيه الرجل أن «أهل الحب صحيح مساكين».

هل هناك ما يضاهي أن ترى شخصًا ممتنًّا لك لأنك عبرت عن مشاعره وهو غارق في الحب؟ هل هناك لحظة ألطف من أن تكون في تاكسي وترى السائق مندمجًا مع أغنية ما فتقول له إنك كاتب هذه الأغنية؟

سأتفرغ لكتابة الغناء.

كل ما فكرت فيه أن الملحن هو الموضوع، الشاعر والملحن هما أصحاب الأغنية، المطرب مجرد ساعي بريد، لكن بدونه لن تصل الرسالة.

الشاعر لديه ما يقوله، والملحن لديه الطريقة التي يجب أن يقال بها، لكن لا أحد منهما يستطيع أن يطرق باب بيت أحدهم قائلًا لك رسالة، المطرب يفعل ذلك بسهولة، وهو صاحب

فضل في أن يجعل صاحب البيت يقبل استلام الرسالة، وهو قاتل أيضًا؛ إذ يغلق البعض أحيانًا أبوابهم في وجهه إذا لم يلمس قلب صاحب البيت.

اخترت أن أعمل مع واحد من الملحنين المشغولين بالموسيقى، وهم يختلفون كثيرًا عن الملحنين المشغولين بسوق الغناء؛ النوع الأول يبحث عن الجملة الموسيقية النادرة التي تجعل اللحن بطل العمل، والنوع الثاني يبحث عن الجملة التجارية المألوفة التي تجعل المطرب بطل العالم. كانت النتيجة عشرات الأغنيات نجلس نستمع إليها مع الأصدقاء، يطلبون منها نسخًا لأنهم أحبوها، لكن لا أحد يطلب نسخة ليبيعها لمطرب.

وقت طويل مر وكلانا، أنا والملحن، يأبى على كرامته أن يهاتف مطربًا أو منتجًا ليعرض عليه عمله. كان الأمر يحتاج إلى مجرد خطوة وحيدة جريئة بلا حساسية أو خوف، خوف من أن يسمع أحدهم الأغنية فلا تعجبه، وهذه إهانة كبيرة يعرفها أهل الصنعة، بالذات في بداية الطريق، إذ من المحتمل أن تكون إهانة قاتلة. سمعنا كثيرًا عن كبار الملحنين والشعراء الذين يتركون كرامتهم خارج الاستوديو ويتفانون في بيع الأغنية للمطرب أو المنتج، حتى لو اضطر الملحن أن يقوم يرقص على أنغام أغنيته ليقنع المطرب كم هي أغنية «حراقة». سمعنا عن شعراء دخلوا بأغنيات بها فكرة عظيمة على مطرب ففرغها الأخير من مضمونها بحثًا عن كلمات سهلة تصلح لحفلات شم النسيم،

فكان أن اكتأب الشاعر الذي كان يبدو في أعين المقربين شاعرًا كبيرًا، وعندما باع أغنية كلماتها ساذجة اعتبروه لم يبع أغنية لكنه باع نفسه.

مر وقت طويل بلا إنجاز حقيقي، إلى أن تجرأت يومًا، ولم أهاتف مطربًا واحدًا، بل هاتفت أربعة، وحملت إلى كل واحد منهم كاسيت عليه إنتاجنا المشترك، التزم واحد منهم فقط بموعده الذي حدده لي؛ «التزم بالموعد» لا تعني أنه جاء إلى المكان المحدد في الساعة المقررة، بل تعني أنه جاء فقط.

قبل أن ألتقي بهذا الملتزم، أعطاني أحدهم موعدًا في كافيه وأغلق موبايله. الثاني كان كريمًا لم يغلق موبايله لكنه طلب مني أن أترك الكاسيت مع أمن استوديو الصوت، لم أفعل طبعًا. الثالث رد واعتذر أنه مع زوجته في المستشفى بينما في الخلفية صوت شخص يغني على العود وآخرون يضحكون، أعطاني الرابع الملتزم موعدًا في الاستوديو الذي يسجل به ألبومه، اتفقنا على السادسة مساء لكنه وصل الواحدة صباحًا بعد عدة مكالمات منه كل ساعة يؤكد لي أنه في الطريق ويرجوني ألا أنصرف.

بذلت كل ما أملك من جهد لأقنع نفسي أنه لا شيء يمس كرامتي، سأنتظر لأن الخطوة الأولى هي الأصعب، ولن أخسر شيئًا، على الأقل عندما أصبح شاعرًا كبيرًا سيكون لديَّ ما أحكيه في اللقاءات التلفزيونية، ستكون قصة أول أغنية لي مثيرة، فقد انتظرت مطربها سبع ساعات، ولم نكن نعرف أنها ستحقق كل

هذا النجاح. مر بذاكرتي شعراء أكبر مني سنًّا يجلسون فقط على المقاهي، ينظرون ويحللون وينقدون والعمر يمر بهم دون أن ينجزوا شيئًا. شعرت بالخوف من هذا المصير. أن أعمل وأخطئ وأتعلم أفضل كثيرًا من هذا المصير البائس، الجلوس على المقهى بنبرة غاضبة ناقمة على من لم يحتفوا بكلماتي لساعات تنتهي بأن أقترض من صديق أجرة العودة إلى البيت، سأنتظر.

(٣)

مراهقًا في مدينتي، وبعد عودتي من ماتش كرة قبل الفجر حيث كانت عادة أبناء الأقاليم في الصيف، كان الجميع نائمين. بحثت عن الشريط الذي أرسله العم، وكل ما أحلم به هو أن أعرف ما قاله عمي وأسال دموع أبي. كان لديَّ فضول أن أعرف ما الذي يُبكي الكبار.

وجدت الشريط، ووضعته في الكاسيت في ليلة أذكر جيدًا أنها لم تكن حارة، بل كان بها نسمة هواء تلمس القلب. لم أعرف أيهما الوجه الأول. وضعت الشريط واستمعت قليلًا. كان عمي يبلغ سلاماته في نهاية رسالته، وما إن أنهى عمي حديثه بالدعوات وبـ«لا إله إلا الله» حتى سادت ثوانٍ من الصمت ثم تلتها موسيقى. قبل أن أنقل على الوجه الآخر و«أجيب الشريط

من أوله» خطفتني الموسيقى. كانت غريبة ومبهجة، كانت الأغنية تقول: «شبابيك الدنيا كلها شبابيك». كانت الكلمات صادمة خصوصًا مع بداية تباشير الصباح الذي جعل الدنيا كلها ـ من البلكونة ـ فعلًا شبابيك.

كان الجو آخذًا في التحسن على خلفية الزقزقة الجماعية للعصافير فوق الشجرة المقابلة للمنزل، وكان منير مستمرًّا في الحكي عن الشبابيك، وعن عمره الذي سرقه من أحزانه... كانت مشاعري في هذه اللحظات مركبة بالنسبة لطفل يسمع كلامًا يدعوه للتفكير، وموسيقى تدعوه لاكتشاف متعة التأمل الهادئ.

دفعني الفضول لمعرفة حقيقة هذا الشريط، وقبل أن أخرجه من الكاسيت كان منير يدعوني لاكتشاف آخر وهو أن الكَون كله بيدور، وأن هناك بشرًا لا أعرفهم، لكنني أكاد أن أراهم «على جسر الليل ماشيين وقمر لياليهم حكاية». كانت الموسيقى مبهجة وراقصة، فرقصت لاإراديًّا رقص الفلاسفة، حيث لا توافق عضلي عصبي على الإطلاق. شعرت بنشوة أقوى من التي شعرت بها عند وصولي لمرحلة البلوغ، نشوة جعلتني أنسى الهدف الرئيسي من تشغيل الشريط، الشريط الذي انتهى فجأة قبل أن تنتهي أغنية «الكون كله بيدور»، وتركني أشعر بجنون ما يشتعل في عقلي ومشاعري، جنون جعلني أفتش عن بقية هذه الأغنية الساحرة المبتورة، حتى وجدتها، واكتشفت معها عالمي السري الجديد،

عالم محمد منير، عالمًا لن أخبر عنه أصدقائي وسأعود له كل ليلة لأحصل على تلك المشاعر مرَّة أخرى.

(٤)

في الاستوديو لا زلت جالسًا في انتظار النجم.

وصل مهندس الصوت، ونشبت بيننا مودة سريعة، لم يكن هناك غيري وعامل الاستوديو، كان جائعًا وسألني فقلت وأنا أيضًا، سألني:

ـ نفسك في إيه؟

ترددت كثيرًا قبل أن أجيب؛ في هذا الاستوديو الفخم هل يصح أن أقول نفسي في «كشري»؟ لكن قلتها، فغرق في الضحك. قال:

ـ أنا نفسي كمان فيه، بس خفت أطلبه لتقول عليَّ مهندس صوت بيئة!

قلت له:

ـ طب ما أنا شاعر بيئة!

أكلنا وشربنا الشاي وأشعلنا البخور ليلطف رائحة الاستوديو، ثم وصل العازفون الذين سيشاركون في أغنية النجم تباعًا، كل واحد يحمل عدته، في البداية وصل عازف الجيتار الكهربائي، ثم عازف الإيقاع، ثم عازف الناي.

نسيت النجم الذي أجلس في انتظاره، وأصبح المكان مبهجًا. شعرت بسعادة ما بينما عامل الاستوديو يدخل ليسألنا هل يحضر لنا «الرز باللبن» الموجود في الثلاجة.

أجلس أنا إلى جوار المهندس، كل مسامي مفتوحة لتسجيل المرَّة الأولى التي أدخل فيها استوديو، وأستمع إلى موسيقى حقيقية. كان العازف يحاول ضبط مفاتيح جيتاره الكهربائي، كان يعزف موسيقى عشوائية يبحث بداخلها عن النغمة المضبوطة، ثم عزف فجأة جملة مألوفة وكررها، قال له مهندس الصوت:

ـ أنا أعرف هذه الجملة.

لكنه فشل أن يتذكرها، قال العازف:

ـ إللي يعرفها هاعزمه على واحدة كادبوري.

عزفها مجددًا، قلت له:

ـ جملة الجيتار في لازمة «الكون كله بيدور».

ضحك قائلًا:

ـ صح!

عزفها مجددًا، وكررها كثيرًا. كان عازف الإيقاع يعزف بالدبلة الموجودة في إصبعه على كوب الشاي، ثم أعجبه العزف فسحب من حقيبته الكبيرة دفًّا وشاركه الموسيقى. بدأ مهندس الصوت يغني: «على جسر الليل ماشيين وقمر لياليتا مراية». شاركته الغناء، وانضم إلينا عازف الناي.

الكون كله بيدور بينما أنا في هذه النقطة من العالم أتمنى ألا يتحرك أحد من مكانه حتى تنتهي هذه اللحظة. أخاف أن يتحرك أحد فيخدش السلطنة التي حلت على المكان فجأة، أن يتحرك أحد فيفسد عفوية عازف الدف الذي تخلى عن مقعده وقرر أن يعزف واقفًا وهو يتمايل على طريقة منير. أخاف حتى أن يصل النجم ويدخل فيفسد اللحظة التي يرتفع فيها صوتنا أنا والمهندس وعازف الدف وعازف الجيتار نضحك لبعضنا قائلين: «أحلى بكرة لينا.. ليناااااااا.. تحلى الذكرى بينا.. بينا».

لكنه وصل.

(٥)

مراهقًا في مدينتي، لم أكن لأعرف الطريق إلى عالمي السري الجديد لولا فحص الشريط الذي أرسله العم بعناية. على أحد جانبي الشريط كانت هناك شخبطة قوية فوق كلمات مطبوعة استطعت أن أميز من بين الشخبطة كلمة «شبابيك» و«منير».

كانت الكلمتان مفتاح البحث.

فهمت فيما بعد أن هذا الشريط كان مسجلًا عليه ألبوم «شبابيك» (نسخة مضروبة)، ويبدو أن عمي تحت وطأة الموقف

وربما الاستعجال سحب أي شريط وسجل عليه رسالته التي لم تملأ الشريط كله، رسالته التي عرفتني على محمد منير الذي لا يحبه أبي.

(٦)

كبيرًا في العاصمة، تفرغت لكتابة الغناء دون نتيجة، تعاملت مع ملحنين آخرين بلا فائدة، فقررت أن أنقذ نفسي بأن أغلق هذا الملف إلى الأبد، لن أضيع في هذا الملعب دقيقة واحدة من عمري.

أنا الآن لا أكتب الأغنية، سأكتب مقالات وكتبًا وقصصًا قد يغنيها يومًا شخص ما.

نسيت الموضوع تمامًا، وعدت إلى ملاعب السميعة المتذوقين، لكن ما يبذله الواحد من مجهود لا يفنى، يأخذ أشكالًا جديدة، يظهر مرَّة أخرى في صورة طاقة متجددة.

كان الواحد يراهن على «الشطارة»، فكانت الرسالة أنك لن تكتب أغنية لأنك «شاطر»، ستكتبها عندما يكون الوقت مناسبًا تمامًا لذلك.

أجلس في بيت صديق، دخل علينا مطرب شاب أحبه، انتهى للتو من تسجيل أغاني ألبومه الأول، قال لنا وهو يشكو:

ـ لديَّ لحن بلا كلمات، لحن يخصني، لا يداعب السوق كبقية أغنيات الألبوم، حاول كثيرون أن يكتبوا عليه كلمات دون فائدة!

نظر إليَّ صديقي، فقلت له:

ـ أنا بطلت!

فقال:

ـ طيب جرب.

أحضر المطرب جيتاره من السيارة، وخفض صاحب البيت إضاءته وأعد لنا أكواب النسكافيه وأغلق التلفزيون، وانتحى جانبًا يدخن ويراقبنا. المطرب يقول اللحن مجرد همهمة ويعيده، وأنا أحاول أن أحول هذه الهمهمة إلى كلمات.

بعد يومين كنا في الاستوديو نسجل الأغنية.

(٧)

عندما صارحت أبي بأن سبب عدم محبته له ربما يكون مرتبطًا في عقله الباطن برسالة عمي التي أبكته، رجل في وسط دموعه على أبيه يظهر له فجأة مَن يخبره أن الدنيا كلها شبابيك. فكر أبي وقال لي:

ـ يمكن!

وصمت، ثم سألني بفضول خفي:

ـ هوَّ الشريط ده لسه عندك؟

(٨)

كنت في التاكسي، بينما الراديو يعلن عن أول أغنية للمطرب الجديد رامي صبري: «حبيبي الأولاني». مددت يدي، ورفعت الصوت، ثم نظرت إلى سائق التاكسي قائلًا له:

ـ أنا كاتب هذه الأغنية.

نظر إليَّ السائق بنصف ابتسامة قائلًا:

ـ آه.. أهلًا وسهلًا.

فرصة عمر

عاصي الحلاني

كلمات: صفوح شغالة

ألحان: طارق أبو جودة

توزيع: هادي شرارة

كيف تعرف أنك قد كبرت؟

بعيدًا عن نهجان قد يصيبك وأنت تصعد السلم.

بعيدًا عن فشلك لثوانٍ في أن تتذكر اسم الشخص الذي يصافحك الآن بحرارة في الشارع.

بعيدًا عن شعيرات بيضاء أخذت طريقها أسفل الفك، أو انحسار عشوائي للشعر بعيدًا عن منبته القديم فوق جبهتك.

بعيدًا عن تجمع الأصدقاء الذي يضيع منه وقت كثير في الترحم على مَن فارق الجمع، واجترار حلاوة وجوده التي ضاعت للأبد بعد سنوات تضيع بقية السهرة في تحديد رقمها الصحيح.

بعيدًا عن زيارة أصبحت منتظمة للطبيب حاملًا ملف التحاليل.

بعيدًا عن أن لاعبك المفضَّل أصبح الآن ضيفًا ثابتًا في استوديوهات التحليل الكروية يرتدي بدلة كاملة كما يليق برجل في طريقه إلى الخمسين.

بعيدًا عن اللحظة التي تكتشف فيها أنك لا تستطيع التمييز بين المطربين الجُدد كما كان يفعل أبواك بالضبط.

بعيدًا عن كل تلك اللحظات التي تقول لك إنك كبرت، يظل الشعور الحقيقي بالمسألة مرتبطًا بلحظة مفرغة لا حدث فيها.

مجرد رسالة عابرة يلتقطها العقل بدون مقدمات من مكان مجهول، تقول للواحد إنه تجاوز مرحلة ما في الحياة، بينه وبينها ما يكفي الآن لأن يتأملها بهدوء.

أقود سيارتي فوق كوبري السادس من أكتوبر بعد منتصف الليل ملتزمًا أقصى اليمين. مصابيح السيارة لا تعمل، أنظر إلى هذا الاستهتار الطفولي بمتعة شديدة قوامها خليط من الغرور والنزق.

غياب الإضاءة كان يبدو لي وكأنه مغامرة مسلية تثير قدرًا من الونس حتى الوصول إلى المنزل في الناحية الأخرى من المدينة، لكن بدون مقدمات بدت المصابيح التالفة وكأنها رسالة، سألت نفسي: هل ترى الطريق جيدًا؟

كان الراديو يبث إعلانًا عن أغنية جديدة للمطرب اللبناني عاصي الحلاني اسمها «فرصة عمر». كان عنوان الأغنية ملهمًا،

ولكن ما إن بدأت الأغنية حتى تبدلت الأحوال تمامًا، دخول موسيقي قوامه الكمانجات والكلارينت، قطبا التعبير عن العوالم القديمة التي أتت منها الروح، لذلك كان الانتباه موجعًا بعض الشيء.

إلى أين؟ أنا لا أرى الطريق جيدًا، ويبدو من عدم اهتمامي بامتلاك مصابيح سليمة أنني لا أعرف تحديدًا إلى أين، فكيف إذن سأعرف يومًا أنني قد وصلت!

كانت السيارات التي تمتلك مصابيح سليمة تمر إلى جواري مسرعة بينما تفشل محاولاتي لإنزال زجاج باب السيارة العطلان لأستنشق نسمة هواء باردة، إلى أن استسلمت تمامًا للموقف، بينما الكلارينت يهبط بأنغامه تدريجيًّا ليفتح المجال أمام المطرب ليقدم نفسه: «فرصة عمر.. كل العمر».

توقفت تمامًا، وفتحت الباب بحثًا عن الهواء، واستمعت إلى الأغنية كاملة حتى انتهت. كانت المرَّة الأولى التي أستمع فيها إلى أغنية لعاصي الحلاني كاملة.

كانت الأغنية تعبر عن عاشق يرى في حبيبته الفرصة التي ستحيل حياته كلها إلى جنة، لكنه اختار أن يعبر عن ذلك بموسيقى تشرح العناء الذي خاضه حتى استقر على باب هذه الجنة. لم يستقر في القلب من الأغنية إلا إرهاق تلك الرحلة. أنا أشعر بإرهاق ما في هذه اللحظة لم أعرفه من قبل، أنا أيضًا لديَّ أحزان لم أتوقف عندها لأعطيها حقها من الانتباه. كانت

قفزاتي أوسع مما يجب، لدرجة أنني لم أتوقف لأتأمل ما سقط من جيوبي أثناء القفز، كنت ألهث دون أن أعطي شيئًا واحدًا في حياتي حقه كاملًا، ومثلما يسابق الكلارينت صوت الحلاني كنت أنا أسابق الحياة بحثًا عن شيء ما لا أعرفه. الآن تحديدًا يوجعني بشدة أنني لا أعرفه.. لقد كبرت.

فتحت صندوق الكهرباء، وأزلت مفاتيح المصابيح الفاسدة، واستبدلتها بأخرى سليمة من داخل الصندوق نفسه، وكان نتيجة ذلك أن استغنيت عن الراديو.

تحركت.

أعيد على نفسي أغنية حفظتها من أول مرَّة، في منتصف الكوبري أرى صورة الحلاني كبيرة ومكتوبًا تحتها: «فرصة عمر.. حاليًّا بالأسواق». عاد الإلهام من جديد، كبرت بما يكفي لاتخاذ قرار فوري بإحياء المصابيح التالفة، أنا الآن أرى الطريق بصورة أفضل، بينما يلوح في مرآة السيارة الجانبية طفل تركته في النقطة التي توقفت عندها قبل قليل، وكلما ابتعدت كانت ابتسامته تزداد وضوحًا.

فاتت جنبنا

عبد الحليم حافظ

كلمات: حسين السيد

ألحان: محمد عبد الوهاب

(١)

هناك عدة أساطير تدور حول مقر مدرستي الإعدادية.

واحدة تقول إن هذا المبنى كان استراحة الخدم الذين يرافقون الملك فؤاد في رحلته إلى الصعيد، كان مخصصًا له قصر آخر كاستراحة أصبح على أيامنا مقر المدرسة الثانوية.

أسطورة أخرى تقول إن المبنى كان مخزنًا لأسلحة الجيش الإنجليزي إبان الحرب العالمية الثانية، ولا أحد يعرف لماذا كان يخبئ الجيش الإنجليزي أسلحته في هذا المكان البعيد! يقول حراس الأسطورة إنهم كانوا يتوقعون أن تنتقل الحرب إلى الصعيد.

أسطورة ثالثة تقول إن المبنى كان تابعًا للبوليس السياسي بعد الثورة، ينفي إليه العناصر المشاغبة وينساها في هذا المخبأ البعيد.

في كل الأحوال، ومع بداية العام الدراسي، هرعنا جميعًا إلى فناء المدرسة بعد أن سمعنا صوت طقطقة مخيفًا كان مصحوبًا بخيوط هزيلة من التراب تسقط من السقف على وجوه الطلبة.

المبنى على وشك أن ينهار فوق الجميع. حصل الجميع على إجازة في انتظار معرفة كيف سيتم استكمال العام الدراسي.

(٢)

لولا «عم علي» لضاع الواحد في غياهب الجهل.

كشك صغير يتسع بالكاد لكرسي عم علي والشيشة التي لم ينقطع دخانها أبدًا. يقدم من خلاله للمدينة الصغيرة (شبه منفرد) الصحف والمجلات والكتب وشرائط الكاسيت، يعرف عم علي مراهقي المدينة المثقفين بالاسم، ويسمح لهم هم فقط بفك السلوفانة عن كتاب ما، أو تصفح العدد الجديد من المجلة التي يحبونها، غيرهم يعاني إذا طالت مجرد وقفته أمام الفرشة. يصطادنا إذا مررنا أمامه بالصدفة: «هذا كتاب جديد لأنيس منصور»، «هذا ألبوم جديد لحميد الشاعري مكسر الدنيا في القاهرة»، «تشكيل الفريق في ماتش اليوم منشور في الأخبار فقط». كل مرَّة تسأله عن السعر يبادر هو بالسؤال:

ـ معاك كام؟

سنوات والحسابات مفتوحة بيننا وبين عم علي، نقرأ ونستبدل الكتب بشرط «ما تتنيش ورقة الغلاف»، أو شرائط الكاسيت بشرط «ما تكسرش البلاستيك اللي في الشريط من فوق». يعرف أذواقنا المختلفة، ويرسل عبرنا إلى الأهالي ـ الذين يشبهوننا بالتأكيد من وجهة نظره ـ رسائل قصيرة: «قول لماما عدد مجلة «البوردا» الجديد بتاعة الأزياء وصل»، «قول لبابا فاضل نسخة من كتاب مصطفى محمود».

عم علي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

(٣)

ستبدأ الدراسة من جديد.

شاع الخبر مصحوبًا بالموعد المحدد.

سنقضي هذا العام الدراسي في مدرسة البنات الإعدادية.

كانت صدمة للكبار والصغار في مدينة في صعيد مصر لا تؤمن أبدًا بالاختلاط! اعترض أولياء أمور الأولاد والبنات! كان الحل أن يتم تقسيم اليوم الدراسي إلى قسمين: صباحي للبنات ينتهي في الثانية عشرة، ومسائي للأولاد يبدأ بعدها بنصف ساعة. الباب الرئيسي لدخول وخروج البنات، أما الباب الخلفي فهو للأولاد؛ حتى لا يلتقي الاثنان لحظة الدخول والخروج.

كانت فكرة أن تجلس في مكان شهد منذ قليل تجمعًا لبنات فكرة مثيرة جدًّا ومربكة لأولاد المدينة. كانت لعبتنا في الأيام الأولى أن تتخيل شكل البنت التي تجلس مكانها في هذه اللحظة. كان البعض يتمادى في اللعبة، فيقع في غرام هذه البنت، وكان الرومانسيون يتركون خطابات يخاطبون فيها المجهول، وفي بعض المرَّات كان يصل الرد عبارة عن تهديد بإبلاغ الأب إذا ما تكررت مسألة الجوابات. كانت هذه الفترة تشهد أول صدمات عاطفية في تاريخ جيلي، لدرجة أن واحدًا منهم استخدم البرجل وكتب على التختة وهو يبكي: «باحبِّك»، فتم فصله، ولم يعد إلا بعد أن قدم والده إلى المدرسة تختة جديدة هدية بدلًا من التي أفسدها ابنه.

أن تبدأ الدراسة بعد الظهر فهذا يعني أننا نمتلك وقتًا لطيفًا قبل المدرسة يمكننا أن نستخدمه في لعب الكرة أو الثرثرة. كنا نتجمع أمام الباب الخلفي قبل موعد الدخول بساعة، كانت هي المتعة صافية.

كان أستاذ المواد الاجتماعية يقف معنا يشاركنا الثرثرة، أخرج علبة السجائر فوجدها فارغة، وضع يده على كتفي بينما يده الأخرى في جيبه، ثم وضع في كفي خمسة جنيهات طالبًا مني أن أشتري له علبة سوبر، كان الطلب محرجًا وبه شبهة إهانة بالنسبة لي، لكنني كنت أحب هذا المدرس، قررت أن أقسم البلد نصفين: أن أذهب بالنقود حفاظًا على «عشمه»، وأعود بلا سجائر حفاظًا على صورتي أمام نفسي.

تحركت بعيدًا فوجدت نفسي بالقرب من باب البنات في لحظة خروجهن.

كانت الصدمة مربكة؛ مراهق صعيدي يعبر شارعًا يعبره في الاتجاه المعاكس في اللحظة نفسها مئات البنات!

أسرعت الخطى باتجاه المحل الذي يبيع السجائر لأختبئ هناك، في نفس اللحظة دخلت بنت بملابس المدرسة لتصور بعض الورق.

لم أعرف كم من الوقت مر.

كنت شبه مخدر، ولم أفِق إلا أمام أستاذ المواد الاجتماعية وهو يقول لي:

ـ سوبر! قلتلك سوبر!

نظرت فوجدتني أحمل علبة سجائر لا أعرف متى اشتريتها ومطالب بأن أعود لأستبدلها!

قررت أن أعود إلى منزلي، ألقيت علبة السجائر في أقرب صندوق قمامة، وفي المساء مررت بزميل أعطيته خمسة جنيهات طالبًا منه أن يعيدها إلى المدرس مع قصة مختلقة عن سيارة صدمتني وأنا أستبدل السجائر، وغبت يومًا لتأكيد القصة.

لكن في مساء اليوم التالي كان المدرس يطرق باب بيتنا حاملًا الشوكولاتة، وأفاض في الاعتذار لأبي عما حدث، تقبل أبي اعتذاره في ذكاء بالغ وودعه حتى الباب، ثم سألني عن الحقيقة، حكيت له، فقال:

ـ جدع!

(٤)

مَن تلك الفتاة التي كانت تقف في المحل؟

كانت هناك تفصيلة أخرى تشغلني: لماذا من بين كل بنات المدرسة اختارت أن ترتدي أسفل البدلة الرمادية قميصًا «بينك»، وليس أبيض كالعادة؟!

كنت أقول لنفسي: هي ليست جميلة. وكأنني أعرف مقاييس الجمال في هذه السن.

ولكنني أبدو مشغولًا بها.

أحضرت ورقة وقلمًا لأفرغ ذهني.

لم أكتب سوى جملة واحدة: «عايز أشوفها تاني».

قمت بما حذرونا منه كثيرًا؛ أن نتواجد عند باب البنات لحظة خروجهن.

لم أقف عند الباب بالضبط، ولكن بعيدًا، أمام فرشة الصحف عند عم علي، حيث مسار إجباري لمعظم الطالبات.

لم تظهر مرَّة أخرى.

وفي إحدى المرَّات كان عم علي جالسًا داخل الكشك يدخن كعادته، بينما صوت قادم من كاسيت المحل يؤكد على فكرة واحدة:

حبيتها

أيوه أنا حبيتها

مش قادر أنسى ضحكتها

خمنت أنه عبد الحليم حافظ قبل أن أسأل.

عائد إلى المنزل، والشريط في جيبي، وأنا أشعر أن «العملية قلبت جد».

(٥)

أعيش قصة حب مع الأغنية.

قصة حب مشتعلة جعلت للحياة طعمًا جديدًا.

قصة حب مع واحدة لم أرها مرَّة أخرى.

حاولت كثيرًا!

وصفتها لأصدقائي الذين يعرفون كل كبيرة وصغيرة في المدينة.

قال أحدهم إن المواصفات تنطبق على ابنة موظف كبير قاهري يقضي فترة خدمته في الصعيد.

قال أحدهم إنها تسكن بالقرب من نادي المدينة... تجولت كثيرًا هناك، بلا فائدة!

قال أحدهم إنها تأخذ درسًا خصوصيًّا عند مدرس لغة إنجليزية... تركت مجموعتي عند مدرس آخر وانضممت لهذا المدرس، أذهب قبل موعدي بساعة، وأتلكأ عند الانصراف، بلا فائدة!

يأتي الليل فأضع الكاسيت بالقرب من فراشي وألعب الأغنية كاملة وأنا متيم، مع كل كلمة يقولها عبد الحليم يقشعر جسدي، إلى أن يصل إلى مقطع «حبيتها.. أيوه أنا حبيتها»، فتدور بي الغرفة إلى أن أسقط في النوم.

(٦)

انتهى العام الدراسي، وبدأت إجازة ما قبل الامتحانات.

طبع أستاذ المواد الاجتماعية مذكرة بها ملخص المنهج والأسئلة المتوقعة، وتركها في محل التصوير لمن يود أن يشتريها من الطلاب.

كان صاحب المحل يطلب مني أن أنتظر قليلًا حتى تصل النسخ الجديدة.

جلست على الرصيف أمام المحل في مواجهة الشمس.

كانت هي تقترب من بعيد، تتحدث إلى زميلة لها، كانت تميل عليها فتختبئ الشمس خلف رأسها، ثم تعتدل فتبدو كخيال.

إلى أن مرت إلى جواري إلى داخل المحل، ستنتظر هي أيضًا النسخ الجديدة.

هنا في النقطة نفسها التي جمعتنا منذ شهور.

يضغط صاحب المحل على زرار التسجيل فأسمع عبد الحليم يقول كلامًا أحفظه جيدًا، كلامًا لا غناء فيه، لا يعرف قيمته غيري،

أقل من دقيقة كانت أشبه برسالة موجهة لي، أغلق بعدها الرجل الكاسيت احترامًا للأذان.

ظللت أدقق النظر إليها حتى خجلت وانصرفت، بينما صديقتها تكتم ضحكتها.

هل كنت أبدو عبيطًا؟

(٧)

مراهق يُعجب بفتاة لأول مرَّة في حياته، يتلمس الطريق كعادة المراهقين إلى أغنيات تشرح مشاعره وتفسرها وتقلب عليه المواجع.

كل هذا يبدو عاديًّا.

لكن أن يختار هذا المراهق أغنية لا تعبر عنه بالمرَّة ويهيم بها؟!

يختار أغنية تحكي عن فتاة مرت على شابين واختلفا في تحديد الشخص الذي تضحك له، لتكون خلفية حبه لفتاة رآها مرَّة واحدة لم تنظر إليه أصلًا؟!

أن يتحرق شوقًا إلى لقاء تلك الفتاة بينما حليم يقول: «بصيت لصاحبي لقيته جنبي وما هوش جنبي.. عايز يقول كلمة اتقالت جوَّه في قلبي»؟

لا يوجد حرف واحد في الأغنية يحكي شيئًا يشبه ما أعانيه، ومع ذلك كلما دارت الأغنية يضيق صدري ويرتاح، وأشعر بطابور من النمل يسير فوق قلبي!

هل كنت أبدو عبيطًا؟
الإجابة: نعم.
ظللت سنوات أشعر بسذاجتي كمراهق في مدينة نائية.
كبرت قليلًا بما يكفي لأن أفهم السر.
أن يقول حليم في وسط مأساته هو وصديقه:

روَّحت أنا روَّحت
روَّحت مش عارف مالي
ما اعرفش إيه اللي جرالي
فرحان عايز أضحك
مهموم عايز أبكي
لا دموعي طايلها
ولا قادر حتى أشكي

هل هناك كلمات أفضل من تلك يمكنها أن تصف مشاعر مراهق يحب للمرَّة الأولى في حياته؟

(٨)

كنا نقف في محل التصوير للمرَّة الأخيرة، يضغط صاحب المحل على زرار التسجيل فأسمع عبد الحليم يقول كلامًا أحفظه جيدًا، كلامًا لا غناء فيه، لكنه يعني لي الكثير:
ـ أنا النهارده كان نفسي أقول فيه كلام كتير.. راجل حمل على

كتفه حمل الموسيقى العربية طول عمره.. أستاذي الأستاذ محمد عبد الوهاب.. هاغني النهارده اللحن بتاعه: «فاتت جنبنا» إللي كتب كلماته الشاعر الرقيق حسين السيد.

حلوة يا بلدي

داليدا

كلمات وألحان: مروان سعادة

(١)

أمر كل يوم بمحل يبيع الأدوات الموسيقية، يضع في الفاترينة جيتارًا أبيض اللون، أتوقف أمامه كل مرة وأسأل نفسي: هل أدخل لأشتري هذا الجيتار أم أنه يجب أن أتعلم العزف أولًا؟

كنت أخاف أن يستغرقني تعلم العزف فيضيع مني الجيتار الأبيض ويشتريه شخص آخر، وكنت أخاف أن أشتري الجيتار ثم أكسل عن تعلم العزف فيتحول إلى قطعة ديكور في غرفتي.

مرت فترة طويلة دون أن أحسم قراري، لم أتعلم العزف، ولم أشترِ الجيتار، اكتفيت فقط بأن أمر به كل يوم لأطمئن أنه ما زال معروضًا للبيع.

حتى جاء اليوم الذي مررت فيه بالمحل فوجدته فارغًا تمامًا

إلا من بعض عمال البناء، بينما مكان الجيتار خلف الزجاج إعلان عن افتتاح فرع لمحل ساندويتشات شهير في هذا المكان.

(٢)

محل متخصص في بيع الجيتارات يقع بالقرب من الفندق الذي أقيم فيه في «ريو دي جانيرو»، كنت قد تعلمت الدرس، لم أفكر كثيرًا هذه المرة، قاتلت حتى حصلت على واحد بأقل سعر ممكن، كانت حقيبته ملونة بشكل مبهج، حملته إلى الفندق، وهناك وجدت أحد العاملين بالسفارة المصرية ينتظرني حسب موعد بيننا، أعجب بالجيتار، سألني إن كنت أجيد العزف فنفيت، قال لي إنه يجيد عزف أغنية واحدة فقط منذ أيام المدرسة، ثم سحب الجيتار ليعلمني طريقة عزفها قائلًا: «حلوة يا بلدي» أغنية بسيطة جدًّا يمكن عزفها كاملة بأربع حركات، لن تعزف اللحن نفسه ولكن الخلفية التي يمكنك أن تغني عليها، مشيرًا إلى النقاط التي يجب أن تتحرك عليها أصابعي أثناء العزف.

قضيت الليل كله أتمرن على الأغنية، فرحًا بما تعلمته من قصة الجيتار الأبيض، أن تخسر وأنت على الطريق أفضل من أن تخسر الطريق نفسه.

عندما سلكت الطريق واشتريت جيتارًا لا أجيد العزف عليه

وجدت نفسي بعد ساعات أجلس في غرفة تطل على المحيط أعزف أغنية أحبها.

(٢)

أعرف أن الرحلة بين مصر والبرازيل لا بد لها من محطة إجبارية في أي مطار أوروبي كترانزيت لساعات قليلة قبل استئناف الرحلة، لكن موظف شركة الطيران قال لي إن الترانزيت هذه المرة قد يطول في مدريد لأكثر من ٢٤ ساعة لسبب ما لم أهتم به، لأنه قدم لي دعوة لقضاء هذه الليلة في فندق قريب من المطار، قلت له سعيدًا:

ـ أتمنى أن يطول الترانزيت لأسبوع.

قال:

ـ ستضطر في هذه الحالة لقضاء الأسبوع على نفقتك.

في مطار مدريد قال لي موظف الجوازات عن دعوة الفندق إنه يمكنني أن «أبلها وأشرب ميتها»، فهي غير صالحة ما دمت لا أمتلك تأشيرة دخول إلى إسبانيا. قلت له:

ـ لقد خدعتني شركة الطيران إذن!

قال:

ـ إنها مشكلتك! ولكن الآن عليك أن تقضي فترة الانتظار في ساحة الترانزيت.

وصلت إلى الساحة حاملًا الجيتار الذي اصطحبته معي على متن الطائرة، كانت الساحة عبارة عن غرفة زجاجية واسعة لا يوجد بها شيء سوى محل صغير للقهوة والمخبوزات ومقاعد جلدية متجاورة وحمَّام، كان المكان غير مريح. قلت لنفسي من المستحيل أن أجلس في هذا المكان ساعتين وليس ٢٤ ساعة. سمحوا لي أن أتصل بالسفارة المصرية، رد أحد الموظفين وحكيت له قصتي، بعد ساعة كان الموظف يقف أمامي يحمل كيسًا به بعض العصائر والبسكويت، ويخبرني أن إجراءات استخراج تأشيرة دخول سيستغرق وقتًا أطول من الذي يفترض أن أقضيه في هذا المكان، طلب مني أن أتصل به إذا احتجت إلى شيء ثم انصرف.

كنت أتأمل المكان شبه الفارغ، وأفكر فيما يمكن أن أفعله.

(٤)

كنت أدخن سيجارة في حمَّام الترانزيت فسمعت طرقًا عنيفًا على الباب، فتحت فوجدت رجل الأمن يخبرني بحسم أنه «نو سموكنج»، ويطلب مني ألا أكرر الأمر، سألني عن موعد طائرتي، فحكيت له القصة كاملة، لم يبدِ أي اهتمام، عاد للتأكيد على مسألة أن التدخين هنا ممنوع.

حاولت أن أضيع أطول فترة ممكنة بالنوم، استلقيت محتلًّا

بجسدي ثلاثة كراسٍ متجاورة، أحاول أن أغفو دون أي جدوى، شعرت بيد تهزني، فتحت عينيَّ فوجدت رجل الأمن يطلب مني أن أتحرك معه.

كل ما فكرت فيه أن إدارة المطار وجدت حلًّا لمشكلتي، قمت متحمسًا حاملًا الجيتار، دخلت معه من باب الطوارئ إلى سلم في نهايته نافذة مغلقة، فتحها رجل الأمن قائلًا:

ـ يمكنك أن تدخن هنا بعيدًا عن صافرات الإنذار.

شكرته وقدمت له سيجارة فقال بحسم:

ـ لا أدخن!

سألني عن الجيتار وهل أنا مغنٍ أم مجرد عازف، أخبرته بالقصة، قال:

ـ أغنية واحدة جيدة تكفي.

أنهيت سيجارتي ثم عدت إلى مكاني.

كان الليل قد انتصف وخفتت أنوار المطار، رأيت رجل الأمن يقترب مني حاملًا كوبين من القهوة أعطاني واحدًا وهو يشير إلى المقهى الصغير في الترانزيت وقد أظلم تمامًا قائلًا:

ـ لا مزيد من القهوة قبل السادسة صباحًا.

قال:

ـ فلتغنِّ الأغنية التي تعلمتها.

قلت له إن صوتي رديء، فقال:

ـ أتمنى ألا يكون عزفك كذلك أيضًا.

كنت أعرف أن أوتار الجيتار قد ارتخت قليلًا بفعل المشوار، لا يعجبني صوتها، وأشعر أن هناك نشازًا. كنت أشعر أنني أبيع للرجل بضاعة مضروبة، هذه ليست الأغنية، لكن كل هذا لم يمنع رجل الأمن من أن يستمع بإنصات وفي عينيه لمعة إعجاب.

سألني عما تقوله كلمات الأغنية، فترجمت له بعضًا منها، استمع باهتمام ثم مد يده مستئذنًا وسحب من بين يديَّ الجيتار، قام بضبط أوتاره ثم بدأ يعزف بدون غناء.

طلب أن أغني له «حلوة يا بلدي» مرة أخرى بدون عزف، حاولت أن أضبط النغمة، غنيت، كان يستمع ويحاول أن يضبط الإيقاع بطرقات حذائه على الأرض، ثم بدأ يعزف مع ما أغنيه.

(٥)

ساحة ترانزيت في بلد أزوره لأول مرة، يطل زجاجها على ممرات الإقلاع والهبوط في إضاءة نصف قوية، أجلس إلى رجل أمن إسباني يعزف على جيتار اشتريته من البرازيل، بينما أغني أغنية لمطربة نصف مصرية نصف فرنسية، لمؤلف لم يقدم في حياته سوى هذه الأغنية، لأن موظفًا في شركة طيران قرر أن يخدعني حتى أشتري تذكرة طائرة ستعود بي إلى القاهرة في رحلة تستغرق يومين، سعادة ما كانت لتتحقق لولا جيتار أبيض كان معروضًا في فاترينة محل في الزمالك.

(٦)

عرفت أنه متزوج وينتظر طفلًا، وأن زوجته تُعلِّم الموسيقى للأطفال، وأنه كان يعتقد أن الناس في مصر تذهب إلى عملها على متن «الجمال»، وأنه لا يحب التدخين، لكنه لأول مرة يرى فيه فائدة ما، إذ عرَّفه على شخص ساعده على عبور الليل في هذا المكان المظلم، وهي مهمة يومية مملة، لكنها الليلة كانت ممتعة على غير العادة، وأن اسمه «فيليب».

رحل في السادسة صباحًا، بينما المقهى الصغير يفتح أبوابه من جديد، ودعته بحرارة، ثم نمت بعمق في مكاني محتضنًا الجيتار.

عندما استيقظت اقترب مني رجل أمن جديد قائلًا:

ـ أخبرني عندما تريد التدخين.

عرفت أنها كانت وصية فيليب.

(٧)

في مطار القاهرة سألني أمين الشرطة عما يوجد في الحقيبة التي أحملها، فقلت له:

ـ جيتار اشتريته من البرازيل.

فتح الحقيبة، وأخرجه قائلًا:

-يعني من قلة الجيتارات في مصر؟!

أمسك أمين الشرطة الجيتار، واتخذ وضعية العازف، ثم نظر إلى زميل له يقف على مقربة منا ثم أخذ يطبل على خشب الجيتار ويغني له:

أنا الزمان هدني

ولا حد بيودني

جامع الفناء

كلمات وألحان وغناء: أحمد فكرون

(١)

قبل عيد ميلادي بأيام استلمت صندوقًا صغيرًا به بعض الأوراق وشريط كاسيت وخطاب، كان الصندوق قادمًا من مدينتي البعيدة التي رحلت عنها قبل سنوات طويلة، والمرسل صديق لم أعوضه منذ رحلت.

الأوراق تضم بعض الأشعار التي كتبتها في مراهقتي ودونتها في أجندة صديقي التي كان يسجل فيها أشعار الكبار. كنت قد نسيتها تمامًا، وكان هو يذكرني بالبدايات، علق في الرسالة قائلًا إنه سعيد جدًّا لأن تلك الأوراق وما فيها من كتابة تقول إن السنوات لم تغيرني.

أما الشريط فقد عرفته من أول نظرة: «أحمد فكرون.. جامع الفناء».

(٢)

أين أحمد فكرون الآن؟

آخر حكاية ورد فيها اسمه كانت تقول إن أغنيته «يا بلادي حبك موَّالي» كانت تذاع عبر سماعات كبيرة في شوارع بني غازي على هامش مقاومة أهلها لمرتزقة النظام السابق.

غير ذلك لا أحد يعرف أين هو الآن.

هكذا تكتمل الأسطورة.

(٣)

كان صعبًا بالنسبة لمراهق لم يتجاوز الثانية عشرة، محاط بهزال موسيقي في نهاية الثمانينيات «أن يستوعب بهدوء تجربة أحمد فكرون».

موسيقى غريبة، شرقية الروح لكنها ملبوسة بعفريت عابر للجنسيات والثقافات، كلمات صعبة على من هم في مثل سني، الغموض يهب من كل مكان. كان فكرون يغني لمكان لا أحد حولي يعرف أين هو: «جامع الفناء»، ولا يعرف أحد لماذا اختار الرجل العجوز أن يعزف على باب الجامع كما تقول كلمات الأغنية!

في جامع الفناء
عجوز بقيثارة
يروي أشعاره
نغمة أوتاره
آلام وأحزان

أما الأحزان فقد كانت صادقة ورصينة، ملفوفة بعناية في بشارات لا تنتهي عن وجع سيكبر يومًا ببلاغة أصفى من بلاغة «سيكبر حزنك حتى يصبح أشجارًا»، مالي ومال الأشجار، الحزن سيكبر في شوارع المدينة كما قال لي فكرون:

وجوه بالفرحة تنعم.. فيها وجوه حزينة

باختصار، كان فكرون يقودني إلى الجنون والقفز فوق سنوات قادمة، منطلقًا من غرفة صغيرة في جنوب مصر إلى رحابة بعرض آلات الكمان التي ترافق فكرون كلما نطق.

عند ظهور اليوتيوب كانت شهوة التفتيش عما ضاع في الطريق في أوجها، بحثت عن تترات مسلسلات لم يكن هناك مجال للعثور عليها قبل ذلك إلا بعرض المسلسل نفسه أو بتسجيل رديء يوجد مصادفة عند صديق كان مجنونًا بتسجيل المسرحيات والأفلام على شرائط كاسيت، إلى أن سألني صديق على استحياء:

ـ فاكر أحمد فكرون؟

سألني على استحياء لأنه في كل مرَّة كان يسأل السؤال نفسه

لشخص آخر كان يبدو واضحًا أنه يستمع للاسم لأول مرَّة، إلى أن فقد صديقي الأمل لكنه تعشم فيَّ خيرًا. بدا واضحًا لي ساعتها أن فكرون وصل لناس بعينها. عندما ظهر في مراهقتنا لم يكن هناك كثيرون يمتلكون الجرأة الكافية للإنصات إليه. كانت المسألة تحتاج إلى شخص أكبر منا سنًّا ليأخذ بأيدينا باتجاه هذه التجربة. سألني الصديق، فغرقت أيامًا بعدها أفتش في اليوتيوب عن كل جملة موسيقية لفكرون، ثم عدت مكللًا بالنجاح، أكاد أرى أمامي مراهق الأيام الخوالي، أكاد أشم رائحة بيجامته الشتوية، مسترجعًا بالمللي قفزاته مع الموسيقى عندما تكون صاخبة، أو شروده كلما أخبره فكرون سرًّا من أسرار حياة الكبار.

(٤)

كان فكرون في سن المراهقة يفتش عن الموسيقى في كل مكان، حتى عندما كان يزور الإسكندرية مع أهله لقضاء الصيف، صادق عازفي الفرق الصغيرة المنتشرة في المدينة، ثم كبر وأرسله أهله إلى بريطانيا لدراسة اللغة والأدب، نسي الموسيقى لكنها لم تنسه.

بعد عام تقرر أن يقيم في ضيافة أسرة بريطانية كان أحد أبنائها يعزف الجيتار، اصطحب فكرون إلى الاستوديو لأول مرَّة في حياته، ومن يومها لم يخرج فكرون من الاستوديو الذي دخله مصادفة (هل كانت مصادفة حقًّا؟).

بمرور الوقت أنتج ألبومه الأول، وكان مفتاحه إلى العالمية؛ لهثت خلفه شركات إنتاج فرنسية وإيطالية وإنجليزية، ووقف على أهم مسارح أوروبا يقدم تجربته التي صارت موضة، ثم بدأت أخبار نجاحه تصل إلى الوطن العربي، فعاد إلى ليبيا نجمًا كبيرًا بعد أن قال عنه أكبر منتجي الموسيقى في فرنسا: «لقد مر بنا فكرون مثل الحلم».

كانت العودة أقرب إلى استراحة محارب، لكنها كانت الحرب من جديد ضد نظام القذافي الذي أراد أن يحتكر شهرته ونجاحه ليغني باسمه، قطعوا اليد التي كان يود أن يمدها لشباب الموسيقى الليبية، وأفسدوا موقعه الإلكتروني الذي يضم رحلته وأغنياته، وحطموا آلاته الموسيقية، لكنه لم يرضخ، استطاع أن ينجو من هذا الهلاك الفني بعناد يليق بالصورة التي رسمها له المراهق إياه في خياله، آثر فكرون أن يبتعد عن الموسيقى، فلم نسمع له جديدًا وإن كان قديمه ما زال طازجًا.

.(٥)

كبرت وعرفت أن «جامع الفناء» في مراكش.

في القطار من الدار البيضاء إلى مراكش كان أحمد فكرون حاضرًا في ذهني بقوة. كان إيقاع المطر والقطار مناسبًا تمامًا للأغنية، وفتح الباب لتخيل صورة لجامع الفناء، وكيف يبدو

شكله، وكيف يبدو شكل العجوز الذي يعزف بقيثارته على بابه، واكتشفت أن خيالي عن المكان لم يتغير منذ سمعت أغنية فكرون قبل سنوات طويلة.

عندما وصلت إلى الفندق وجدت لافتة كبيرة مكتوبًا عليها «ساحة جامع الفنا»، وسهمًا يشير إلى مكانها. كان المطر قد توقف، وأشرقت شمس لطيفة مبهجة.

في الساحة كنت أسأل كل من أقابله عن جامع الفناء. كان الجميع يؤكدون لي أن جامع الفناء هو حيث أقف الآن، كنت أقف في ساحة ينتشر فيها باعة الهدايا التذكارية، ورجال يجلسون تحت شماسي يعالجون بالقرآن زبائنهم المسحورين أو الممسوسين، وعربات تبيع التوابل، ورجال يعزفون على القيثارة لكسب عيشهم... لكن أين الجامع نفسه؟

في المقهى كان جاري بشوشًا بما يشجع على سؤاله من جديد:

- أين جامع الفناء؟

ابتسم الرجل قائلًا:

- هنا ساحة جامع «الفنا»، وليس «الفناء»، ولا يوجد أي «جامع»!

اكتشفت أن المعنى يختلف تمامًا عما فهمته واستقر في وجداني منذ سنوات، فكلمة «جامع» هنا بمعنى «مجمع»؛ أي المكان الذي يجمع، أما ما يجمعه هذا المكان فهو «الفنا» بمعنى الـ«Fun».

أي أن هذا المكان يجمع كل ما له علاقة بالمتعة والتسلية، من

هدايا وألعاب وطعام وتوابل وسحرة وعازفي القيثارة المغربية (السنتير).

سألت الرجل:

ـ لا جامع هنا إذن؟

فقال:

ـ لا.

ثم سألني:

ـ مَن الذي أخبرك أنه يوجد جامع هنا؟

قلت له:

ـ أحمد فكرون.

(٦)

كل مَن استمع إلى فكرون في منتصف الثمانينيات من مراهقي وأطفال هذا الجيل وأخلصوا في احتضان رسالته، ستجدهم الآن أشخاصًا مختلفين تمامًا عمن يحيطون بهم.

كانت تجربة فكرون اختبارًا، مَن نجح فيه يقترب الآن من سن الأربعين وهو «جايب آخرها»، بعد أن امتلك مبكرًا هضبة أعلى من التي يقف عليها أصدقاؤه، فرأى مشقة الأيام القادمة قبل أن يعيشها، ولمست أطراف أصابعه المدى قبل أن يعرف الآخرون أن هناك مدى.

اليوم أرى أن سؤال: «سمعت أحمد فكرون؟» أقرب لاختبار الشخصيات التي تحلل نفسية الآخرين، سؤال يوفر على الواحد حوارات كثيرة، ويجعل الصمت مع أشخاص استمعوا إليه قديمًا صمتًا مليئًا بالكلام الذي يعرفه السائل والمسؤول جيدًا.

(٧)

كتب صديقي في رسالته أنه سعيد جدًّا لأن تلك الأوراق وما فيها من كتابة تقول إن السنوات لم تغيرني.

أما شريط الكاسيت، فكان ملكًا لي، وكنا قد وقعنا في غرام هذا الألبوم وكان شريكًا في مراهقتنا، كان كل واحد يحتفظ به لفترة ثم يعيده إلى الآخر عند الطلب، إلى أن توقف هذا الشريط عند صديقي دون عودة، قال لي إنه بحث عنه في كل مكان دون جدوى.

كنت أرى الكذب في عيني صديقي. خاصمته دون فائدة. أخذت ساعة يده وخبأتها وقلت له سأعيدها عندما يعود الشريط، ولكن دون فائدة أيضًا. فتشت غرفته في غيابه، ولم أعثر على شيء، ثم أذعنت تمامًا للهزيمة.

بعد سنوات طويلة كان الشريط نفسه هدية عيد ميلادي التي لم يحدث ما يشبهها في حياتي، فرحت به وتأكدت أن السنوات لم تغير صديقي أيضًا.

(٨)

أجلس أتأمل شريط الكاسيت الذي عاد لي بعد سنوات طويلة، وأفكر أين اختفى أحمد فكرون، لكن ما يشغلني أكثر هو سؤال: كيف وصل هذا الشريط إلى غرفة مراهق متوحد، في بلدة كان يندر أن تصل إليها تجارب مشاهير المطربين، فما بالك بتجربة شبه سرية مثل تجربة فكرون؟

بختة

الشاب خالد

كلمات وألحان: تراث جزائري

(١)

لا خطوات واضحة يمكن الاعتماد عليها من أجل الوصول لهذه اللحظة.

(٢)

قال لنا سائق التاكسي إن اليوم هو موعد السوق الكبيرة في «بنزرت»، تقام السوق داخل أسوار المدينة القديمة. كنا في العاصمة، وكانت التاسعة صباحًا، وكانت جملة «أسوار المدينة القديمة» ملهمة. رأيتني هناك بالفعل، ورأيت صديقي يحمل الهمة نفسها، فقررنا أن نصطحب سائق التاكسي إلى هناك.

قال السائق:

- لا أستطيع أن أخرج من العاصمة بالتاكسي!

كانت الجملة معلقة، كانت لها بقية ما مترددة خلف حنجرته، فقلت له:

- إلا إذا...؟

فسحب شارة التاكسي من فوق سقفه، وقال لي إذا استوقفتنا الشرطة قل إننا أصدقاء وإنك لست زبونًا يستأجر تاكسيًّا.

نصف ساعة في طريق شبه فارغ إلا من الهضاب الخضراء، يروح المطر ويجيء، والراديو يذيع أغنيات يصعب تمييز كلماتها، يفرط مزيكاتية المغرب العربي في استخدام خلطة الأكورديون والكمان، فلا تعرف إن كان الحزن الذي يطاردك أم فرحة ما، فقط لوعة معلقة في القلب كحب في أوله.

سألني السائق إن كانت تمطر في مصر بهذه الطريقة، قلت له:

- أينما ارتاح القلب يسقط المطر.

(٣)

لم تكن هناك أية أسواق، السوق تقام الأربعاء، وكنا يوم الأحد، بذل السائق مجهودًا كبيرًا ليقنعني أنا وصديقي أنه ليس «نصابًا»:

- سأقودكما في جولة داخل المدينة سيرًا على الأقدام.

قبل أن ندلف إلى المدينة القديمة كان القلب قد وقع في أسر بيوت اختلط على واجهتها اللونان الأبيض والأزرق، ووجوه مبتسمة، ومقامات صغيرة لشيوخ يبدو من أسمائهم المنحوتة فوق لوحات رخامية أنهم قد عرفوا الكثير قبل أن ينتقلوا. كان المطر يتراجع بينما تستعيد الشمس سيطرتها بما يجبرك على التخلي عن سترتك والاكتفاء بتيشيرت. كانت فكرة وصول الهواء إلى مساحات أكبر من الجسد مفرحة كلحظات الخروج مبكرًا من المدرسة في الطفولة.

من باب خشبي عريض أكلته الشمس والسنون دلفنا إلى المدينة القديمة التي لم يكن بها شيء قديم سوى الباب والأسوار والأزقة الضيقة، وتصميم المدينة الذي أرغم البيوت على أن تتلاصق، كل بيت يحتل مساحة صغيرة في العرض يعوضها بإطالة البناء.

دخلنا، ثم حدث أن افترقت خلال السير عن صديقي وسائق التاكسي.

(٤)

البيوت مغلقة، ولا أحد في الأزقة إلا نادرًا، هدوء يليق بيوم إجازة.

أتجول بينما تهل من هذا البيت ضحكة رجالي، ومن هنا صوت قرآن، بيت تنام أمامه قطة وقد التف حولها ست قطط

حديثة الولادة، هنا بيت تلونت واجهته بقطع رخام اختلط فيها لون الفيروز بالأصفر بالأزرق السماوي، وهنا رجل مسن يجلس في بقعة الشمس يشرب قهوته، اقتربت منه لكنه سرعان ما سحب مقعده إلى داخل البيت، كان المطر قد عاد.

لا شيء في حياتي الآن، لا أشعر بشيء، أنا واحد من القطط حديثة الولادة التي مررت بها. قطة تختبر العالم لأول مرَّة، لو أنني ظللت أسير في هذه الأزقة تحت المطر الخفيف لسرت حتى أستقر بين يدي ربي. كان المطر خفيفًا، وكانت الشمس تتفهم ذلك، وكان الواحد فخورًا بكل ألم مر به في حياته من قبل، ويتمنى لو أن كل غصة قديمة تعود لأشكرها على الباب الذي فتحته أمامي لأخطو خطوة جديدة.

كان صوت الشاب خالد يجيء من بعيد.

كان هذا ما أحتاج إليه بالضبط في هذا الوقت.. سرت خلفه كسلحفاة تسبح تحت الماء، كان يغني لـ«بختة» زينة البنات:

جاني رجل بشار

صابته (قابلته) بختة في لاقار (محطة القطار)

أرسلته يجي عندي للدار

يعيد لي الأخبار بالخفية (يحكي لي أخبارها في السر)

عند مفرق ما احترت من فرط ما شوشت الحوائط المتداخلة بصدى الصوت الذي يرن بينها على الاتجاه القادم منه صوت. كنت أفتش لأنني خفت أن يضيع مني الشاب خالد، ها أنا أتعلق

بالحياة مرَّة أخرى، كنت أخشى وأنا في كل هذا الونس أن أفقد المزيد منه يأتيني عبر أغنية قديمة.

لم أكن أعرف وأنا أدخل إلى الزقاق الذي تبدو الشمس فيه أكثر سطوعًا أنني أخطو باتجاه هذه اللحظة.

(٥)

اختلط صوت الشاب خالد برائحة زكية.

كنت أعرف أنني أقترب من مصدر الصوت.

مررت بباب بيت مفتوح، كان هو الذي يبث الصوت والرائحة، عبرته لكنني لم أستطع مقاومة أن أعود لألقي نظرة عبر الباب المفتوح.

الممر الصغير الموجود في مدخل البيت هو مطبخ صغير.

تتسلل إليه الشمس عبر نافذة ملونة.

تبدو الأرضية مصنوعة من حجارة المدينة القديمة.

أمام الموقد المسطح الصغير كانت هي تقف، وقد صنعت من شعرها الطويل ذيل حصان يتدلى من أسفل منديل ملون قد لفت به رأسها وهي تطبخ شيئًا ما.

صبية نحيلة تهز رأسها في ضوء الشمس الملون الذي اتخذ بفعل البخار المتصاعد شكل أشعة متفرقة أنارت الجانب الأيسر لوجهها.

كانت تحرك يدها داخل الإناء حركة دائرية وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا مع إيقاع الجمل الذي يسيطر على الأغنية.

كان صوت الشاب خالد يأتي من داخل أعماق البيت، ربما شقيق أكبر يستمع إليها بالداخل، وكانت هي تشارك الشاب خالد الغناء بصوت رخيم.

جاية في كاليش
مراسية كي أمير الجيش
الرقبة كي الطورنيش
صافية والوجه مراية

ابتسمت وهي تقول الجملة الأخيرة، ويبدو أنها أسعدتها.

كان المطر قد اختفى نهائيًا، بينما تسمرت أنا في مكاني أمام صبية غادرت طفولتها منذ فترة، تقف بجلباب فستقي اللون في مدخل بيتهم تطبخ سحرًا ما لا أستطيع أن أميز من رائحته سوى القرفة.

فجأة توقف صوت الشاب خالد فاستدارت، وتعامدت الشمس على كامل وجهها. لمحتني فابتسمت بما تبقى بداخلها من الطفولة القديمة، كانت الابتسامة موجعة فمشيت.

مشيت، لكن روحي كانت في مكانها أمام هذا البيت الذي تطل منه سعادة ما، لدرجة أرغمتني على العودة لأسحبها من جديد.

عندما عدت لم تكن واقفة، ولكن الأبخرة كانت مستمرة في التصاعد.

عاد صوت الشاب خالد عاليًا من الداخل وعادت هي.

وقفت الطفلة الكبيرة تتأملني وأتأملها، ثم هطل المطر بغزارة فانصرفت.

(٦)

ترجم لي يا صديقي.

قال:

ـ جاية في كاليش: «عربة بأحصنة»، مراسية كي أمير الجيش: «مهيبة كأمير الجيش»، الرقبة كي الطورنيش: «مثل برج عالٍ».

قلت له:

ـ صافية والوجه مراية.

(٧)

لا خطوات واضحة يمكن الاعتماد عليها من أجل الوصول إلى هذه اللحظة.

هناك من يغازلها بمخدر ما أو بعض الكحول، قد يحدث في هذه الحالة ما يشبهها، لكن النتيجة غير أصلية على الإطلاق، مجرد تهيؤات، استدعاء مؤقت للأعراض، فرحة كاذبة ستنساها قبل أن يرتد إليك وعيك.

لكن اللحظة الأصلية هي الوعي نفسه، تظل قائمة في روحك ما دمت حيًّا، ومَن يدري، ربما في حياة أخرى تصبح هي مفتاح الدخول.

يا ساعة بالوقت اجري

نور الهدى

كلمات: محمد علي أحمد

ألحان: فريد الأطرش

(١)

كان على رأس قائمة مهام زيارة بيروت إجراء حوار صحفي مع موسيقار مثير للجدل، تمتلئ الساحة بفنه ومعتقداته الجديرة بالتأمل وبعض الإعجاب، هذه التركيبة يدرك الصحفي أنه من الصعب الإمساك بها لمحاورتها، يحتاج الواحد ساعتها إلى حظ هو مزيج من وساطة مقربة بشكل شخصي للمصدر، مع الكثير من الصبر لاقتناص لحظة اعتدال مزاج لا تشوبها المشغوليات، مع اسم رنان للصحيفة التي تعمل من أجلها، ويفضل أن يتم هذا في أعقاب طرح المصدر لعمل جديد يلقى استحسان المتابعين،

فتضمن مبررًا مقنعًا للمقابلة أصلًا، ويكتسب الحدث كله مزية أخرى إذا كان الصحفي «صحفية».

لكن كل هذا لا يتوافر لصحفي يقضي أيامًا قليلة في بيروت، إلا لو كان أحد أولياء الله الصالحين. وبما أنني لم أكن أمتلك من كل شروط مقابلة زياد الرحباني إلا الوساطة فقد بات الأمر صعبًا. على سبيل التعويض كان هناك عرض بإجراء حوار مع مطربة معتزلة من زمن عبد الوهاب وفريد الأطرش.

(٢)

مقابلة فنان كبير معتزل تحتاج إلى شرط وحيد، هو أن يكون على قيد الحياة وقدر لا بأس به من صحة البدن والذاكرة، وهذا ما توافر في المطربة «نور الهدى». قبل أن أقبل العرض حاولت أن أتذكرها جيدًا، وأن أحدد في نفسي الأثر الذي تركته تجربتها الفنية. تذكرت لها أغنية واحدة جميلة وحضورًا رائقًا في أفلام سينمائية قديمة من النوع الذي تستمتع بوجوده إلى جوارك بينما تتناول الغداء في أحد الأيام الشتوية. كل الصور التي استرجعتها في تلك اللحظة كانت تبدو فيها مبتسمة. خمنت أن الحوار معها سيرضي قارئًا من جيلها، بخلاف أنه سيرضي فضول شخص مثلي مغرم بتتبع أثر الزمن على كل تفصيلة في الحياة من البشر إلى الحجر.

(٣)

فتحت الورقة الصغيرة أتأكد من العنوان؛ فالبيت الذي أقف أمامه لا يدل على مضيفتي. راجعت الوسيط تلفونيًّا فقال لي إنه بيت شقيقتها وهي تقيم معها؛ فهي لم تتزوج، كما أنها لم تقرب الفن منذ نهاية الخمسينيات، أي أن مصدر رزقها انقطع تقريبًا، أو على الأقل انقطع عنها سبيل الحياة الرغدة التي يوفرها الفن، وهذا ما تأكد عندما دلفت إلى البيت الصغير المتواضع الذي لم يخلُ من البهجة بخليط رائحة ماء الورد والقهوة.

كانت شقيقتها كتلة من خفة الدم والحضور الطاغي، أجلستني ثم سألتني إن كنت أود بعض الخبز الطازج مع طبق تبولة والحمص، كان العرض مغريًا على بساطته ولم أقاومه. قالت وهي تضع الأطباق:

- إن الحرب في لبنان كانت كذبة كذبها الناس وصدقوها!

قالت:

- كنا ننتظر توقف إطلاق النار لنجلس أمام البيت نصنع التبولة معًا لنسند بها المعدة مع بعض الشراب، لم يحدث أن لفظت طبق التبولة يد لأن صاحبها مسلم أو مسيحي أو حتى ما يعرف الله!

قالتها باللهجة اللبنانية وضحكت فضحكتُ.

كانت مسترسلة في الحديث، بينما أرى من الباب الموارب شقيقتها، عرفت أنها نور الهدى. كانت تختفي خلف الباب لدقائق ثم تظهر من جديد. كان باديًا أنها تقطع الطريق من الدولاب إلى المرآة، ففي كل مرَّة كانت تعبر تلك المسافة بملابس جديدة، كصبية مراهقة تعرف أن عريسها بالخارج، وتحتار بشأن ما يجب أن ترتديه.

داعبتني شقيقتها بنكتة خارجة، أضحكتني روحها أكثر من النكتة نفسها، ندهت عليها نور الهدى وسمعتها تعاتبها على هذا الابتذال أمام الغرباء، فردت أختها أن العالم كله يعرف أن نكاتها من «الزنار ونازل»؛ أي تبدأ من عند الحزام في الطريق إلى أسفل.

شاهدت شقيقتها وهي تضع لها الكحل، بينما نور الهدى مستسلمة ليدها. كان باديًا أن النجمة القديمة تجتهد لتسترجع قدر استطاعتها بعضًا من بريقها القديم. كانت تدندن بالأغنية الوحيدة التي أعرفها: «يا ساعة بالوقت اجري». ربما ساعدتها في أن تتذكر كيف عليها أن تتصرف كنجمة محبوبة. طال الوقت وفتحة الباب الموارب تحكي عن روح لم تفسدها العزلة، وفنانة معتزلة ترى في صحفي جاء من أرض الشهرة القديمة فرصة لامتلاك العالم من جديد ولو لدقائق، وفي

فلاش كاميرا يدوية صغيرة إحياء لذكرى الأضواء التي ربما ظنت يومًا أنها خالدة.

كان صوتها يحمل رائحة البريق القديم. أما أنا فقد وقعت في غرام الأغنية، وظللت أرددها بيني وبين نفسي في انتظار أن تخرج صاحبة الأغنية من غرفتها.

(٤)

كانت أنحف مما تتوقع، لكن لم يمنعها هذا من أن تجلس واضعة ساقًا فوق الأخرى، بينما تفرد ظهرها كما لا يليق أبدًا بامرأة تعدت السبعين أو أكثر، ربما وجهت سؤالًا أو اثنين، لكنها لم تكن بحاجة لهما، فقد منحتها العزلة الطويلة كمًّا كبيرًا من الأسئلة وإجاباتها لم تتوقف ثانية عن تفريغها أمامي.

قالت إنها لم تتزوج فريد الأطرش وأغلب الظن أنه لم يكن مهتمًّا بالنساء أصلًا (قالتها على استحياء). قالت:

ـ هذه أمور تشعر بها المرأة إذا ما أتيحت لها فرصة أن ترقص مع رجل على موسيقى ناعمة.

قالت إن مصلحة الضرائب المصرية طفشتها من البلد الذي أحبته ربما بإيعاز من آخرين:

ـ كنت مهددة بالسجن فعدت إلى لبنان!

لكن يبدو أن لبنان عاقبتها بالتجاهل لأنها انطلقت من بلد

آخر؛ قدمت هناك فيلمًا واحدًا وسقط، ثم عدة أغنيات، ثم اعتزلت تمامًا.

سألتني عن مصر فأجبت. ثم سألتني إن كنت أعرف أغنياتها، فقلت لها أحب التي كنت تغنينها في غرفتك الآن. قالت لي:

ـ ألحان فريد.

طلبت منها أن تغنيها لأسجلها لها على شريط كاسيت على سبيل الذكرى ففعلت. كانت طوال الجلسة تزيح خصلات شعرها خلف أذنيها، فتطل الشعيرات البيضاء التي لم تطلها الصبغة، لكن كانت أظافرها سليمة تمامًا ونظيفة وملونة كما يليق بنجمة.

ظل الشريط الذي يحمل الحوار والأغنية بصوتها هديتي لكل صديق سميع يزورني. نتأمل معًا كيف أن التجاعيد التي ظهرت على صوت نور الهدى جعل الأغنية أكثر سحرًا. كنت أفكر أن أغنية مدفونة في روح صاحبتها أكثر من خمسين عامًا من الطبيعي أن تتحول إلى قطعة ألماظ.

(٥)

نشرت الحوار، ثم هاتفتها لأطلب منها شراء المجلة، ردت أختها وقالت إنها مريضة جدًّا لكنها ستحضر المجلة وتقرأه عليها في المستشفى.

بعدها بشهور رحلت عن عالمنا دون أن أعرف إن كانت قرأت ما كتبته عنها أم لا، ثم بحثت كثيرًا عن الشريط الذي يحمل صوتها ولكن دون جدوى.

قلبي

محمد فؤاد

كلمات: محيي حوار

ألحان: محمد فؤاد

توزيع: حاتم داود

(١)

أنا في الإسكندرية، أقيم في فندق جيد، عيبه الوحيد أنه لا يقدم طعام الإفطار قبل الثامنة صباحًا، أيقظني الجوع في السادسة.

رحت أتجول حول الفندق بحثًا عن أي شيء يصلح للأكل ولكن دون جدوى.

وصلت إلى مقهى قديم يطل على البحر، لا يقدم طعامًا، لكن بعض «الشاي باللبن» يقوم بالمهمة.

في انتظار ما طلبته جلس قريبًا مني شاب وسيم يحمل في يده كيسًا أخرج منه بعض الساندويتشات وبدأ يلتهم طعامه،

سألته بحسن نية عن مصدر الساندويتشات، همَّ بالإجابة، لكنه تراجع ثم حمل الكيس والساندويتشات وجلس إلى جواري، ثم مد يده بواحد قائلًا:

ـ لسه هاشرح!

كانت ابتسامته كريمة، وكان صادقًا في مودته، كلانا كان في مهمة عمل في الإسكندرية، حصل التعارف سريعًا ثم تحول بعد دقائق إلى «عيش وملح».

أرتاح أحيانًا للأصدقاء الذين اختارهم لي القدر أكثر من ارتياحي للأصدقاء الذين اختارهم الواحد بنفسه.

أصبحت «خروجة» يوم الخميس طقسًا ثابتًا في علاقتنا.

اتفقنا يومًا على زيارة المزرعة الصحراوية التي يمتلكها والده.

قبل أن نتحرك بسيارة الصديق توقفنا عند أحد الأكشاك لشراء ألبوم محمد فؤاد الجديد «شاريني».

تحركنا بين الأغنيات سريعًا، ثم وقعنا في غرام واحدة، كلما انتهت أعدنا الاستماع إليها.

قلبي اللي حبك وضمك وداب فيك دوب
قادر يكمل بغيرك طريقه وحياته

شمس غابت ومطر خجول بدأ يهطل فجأة، شتاء يليق بالأغنية التي التقطنا كلماتها جيدًا مع المرة الثالثة، فرحنا نشارك فؤاد الغناء بحماس:

خليكِ هناك بعيد

لو حتى هاعيش وحيد

و الويل لو زاد يزيد.. سيبيني في حالي

أثناء قيادته للسيارة أخرج صديقي من حقيبته الجلدية الصغيرة كيس التبغ الأجنبي ليعد لنفسه سيجارة.

كنت أرى خطورة فيما يفعله، عرضت عليه أن أساعده ليتفرغ للقيادة، قبل أن أنهي عرضي كان قد انتهى من إعداد سيجارته بمهارة فائقة وبيد واحدة.

أبديت دهشتي.

قال إنه هجر الدخان سابق التجهيز، وبات يرى متعة في أن يصنع سيجارته بنفسه، ابتسم وهو يؤكد على الفكرة قائلًا:

ـ إن إعداد فنجان القهوة ممتع أكثر من القهوة نفسها، مرت سنوات لا أدخن فيها سوى هذا النوع من السجائر، حتى صار إعدادها سهلًا كما ترى.

صمت صديقي لثوانٍ، ثم قال:

ـ للأمانة، هذه المهارة كانت أحد الدروس القليلة المستفادة من تجربة مررت بها قبل عامين جربت فيها تدخين الحشيش.

كان صمت الصديق مغريًا.

سألته:

ـ هل تود أن تحكي؟

قال:

ـ جدًّا.

مددت يدي معتذرًا لمحمد فؤاد لأننا سنستغني عنه لفترة حتى أسمع الحكاية.

لكن يد الصديق كانت أسرع مني، قطع عليَّ الطريق قائلًا:

ـ خليه.

(٢)

قال:

ـ على سبيل التجربة دخنت الحشيش أكثر من مرة مع بعض الأصدقاء، دون أن يعني هذا شيئًا، لم ألحظ تغييرًا، أجرب كثيرًا وأفشل في صعود الموجة التي تحمل الأصدقاء مكانًا أبعد من الغرفة التي نجلس فيها. أراقب جيدًا ما يحدث لهم، أشياء تافهة تضحكهم، أغنيات عادية يقولون في عظمتها كلمات ضخمة، نشاط يعقبه ارتخاء ثم صمت مطبق ينتهي فور أن يفضح أحدهم شعوره بالجوع، فتخرج الألسنة لتدور حول الشفاه الجافة. يتذكر البعض عطشهم فيطلبون الشاي والنسكافيه، ثم يبدأ حوار كسول عن نوع الطعام الذي يليق باللحظة. أيام طويلة أستمتع بالمتابعة، أجرب الدخان لكن اليقظة أقوى، شيء ما بداخلي يرفض أن يروح في هذه الحالة، الرفض يجعل الحشيش بلا أثر.

لكن سرعان ما تغيرت الأمور، عرفت أنها تغيرت عندما استقرت بين يدي العلبة الـ«كوتاريللي».

كان هناك محل فقير للغاية، مجموعة من الأشياء القديمة معروضة للبيع في إضاءة باهتة. في ممر متفرع من أحد شوارع وسط المدينة، يجلس المحل، يحتضن بروازًا كبيرًا يضم صورة أبيض وأسود لرجل يبدو أنه أب من الخمسينيات. قال البائع إنه قضى الليلة الماضية يسكر ويبكي أمام هذه الصورة دون أن يعرف سببًا.

المكان مُعبأ بحنين ما، قد لا يتحمله شخص رقيق مثل هذا البائع الحزين، خصوصًا لو كانت خمرته مغشوشة: أجهزة راديو قديمة، كتب نادرة، مطحنة بُن صدئة، آلة كاتبة ضاع معظم حروفها، صحف صفراء، جرامافون، صور ملونة لعبد الناصر مكتوب عليها «مدرسة الخلفاء الراشدين الابتدائية ١٩٦٠»، ماكينات خياطة لم تعد تصلح لشيء ضاعت معظم الحروف الأجنبية المكتوبة على جسمها.

بين كل هذه الأشياء وجدت ما لم أكن أبحث عنه.

علبة سجائر معدنية قديمة، مكتوب عليها بالإنجليزية «كوتاريللي»، معدنها يبدو أنه رخيص لكنه ما زال يحتفظ بحالته، العلبة أيضًا ما زالت متماسكة لا يسهل فتحها، كانت الكتابة فيما مضى حمراء، لكن ما تبقى من اللون مجرد طيف جعلها ساحرة، اشتريتها دون أن أناقش السعر.

كان يحيرني من قبل أين يمكنني أن أخبئ الممنوعات، وجدت في العلبة براحًا للفكرة، الستر، بخلاف أنها من زمن ماضٍ، وقعت في غرامها وقررت أن أؤلف سيرة ذاتية لهذه العلبة، قلت إنها كانت يومًا في حيازة مدخن ستينياتي، خطر لي أن رقة العلبة تخبرني أنها كانت في حوزة امرأة.
فكرت أنه في ليلة شتوية كانت السيدة خارجة للتو من بيت عشيقها الذي أخبرها أن علاقتهما انتهت، وأنه لن يسمح لنفسه بالتمادي في علاقة سرية وهو رب أسرة. شعرتْ بالإهانة فأشعلت سيجارة، وخرجت بعد أن نسيت علبتها والدموع تغطي عينيها، وسارت على قدميها من جرسونيرة العشيق في جاردن سيتي حتى بيتها في قصر النيل. ظل الرجل محتفظًا بالعلبة تذكارًا لقصة الحب الوحيدة في حياته، وحينما مات قرر حفيده أن يبيع الشقة لشركة سياحة، ثم تخلص من كراكيب الجد وبينها العلبة التي استقرت في يد بائع رقيق، فهمت الآن سر دموعه وهو سهران مخمور أمام صورة الرجل الخمسينياتي.
كانت العلبة المعدن مثار إعجاب الجميع، ثم حدث مع نهاية أحد الأيام الشتوية أنني كنت أجلس مع الأصدقاء، وأشعل أحدهم سيجارة، يبدو أنني قد أفرطت في التدخين كشخص «غشيم»، فشعرت أن الدنيا تضيع مني، وأني معلق في مكان ما، لست قادرًا على العودة إلى الأرض، كما أنني

فقدت تمامًا القدرة على التحليق مع السيجارة، الألم في مكان ما من روحي، أنا أقف أمام باب مغلق ولا أعرف من الذي يمكنني أن أتوسل إليه ليفتح هذا الباب. هناك الحياة، وهناك الموت، وهناك مكان آخر مخيف بينهما، يظلم فجأة، ثم يغرق في أنوار مبهرة تعمي العيون، وما بين الظلام والنور تجيء أصوات صرخات مكتومة من مكان ما، بينها صرخة واحدة حادة ورفيعة، أطبقت عيني تمامًا، ثم نطقت الشهادتين دون أن أشغل بالي بالمكان الذي سأستيقظ فيه، المهم كان عبور هذه النقطة، وأيًّا كان الموجود على الضفة الأخرى فهو بالتأكيد أفضل من المكان الذي أنا فيه الآن. لم يكن هناك شيء مفهوم سوى الخوف، حاولت أن ألتقط خيطًا في الحياة لأتعلق به دون جدوى، حتى غبت عن الوعي.

كانت لحظة قاسية.

كنت في البداية أدخن دون أن أشعر بأي تغيير، حتى وقع التأثير في يوم لا أنساه. حدث انتصار صغير، لكنه كان مهمًّا لأنه في بداية الطريق، منتصف النهار ولا أحد أعرفه يمكنني أن أشاركه نشوة هذا الانتصار. هاتفني صديق بالصدفة لأزوره، ففعلت. الكنبة الأمريكية بُنية اللون في صالة منزله، كانت أول ما لفت نظري، عندما جلست وغصت في حناياها زادت نشوتي وشعوري بالراحة، مد يده بالسيجارة الملفوفة، قلت له: «مر وقت طويل وأنا

أشارككم الأمر دون أن أشعر بشيء، جهازي العصبي أقوى كثيرًا من أن يؤثر فيه ما تدخنونه». قال لي: «سيب نفسك». ساعدتني الكنبة على تنفيذ النصيحة، دخنت وأنا مستلقٍ. شعرت بالاسترخاء وكنت أتحسس ابتسامتي بينما أراقب طيورًا ملونة تجوب في سقف الغرفة، كنت أشعر بكل شيء في العالم يسير على مهل، كنت أستقبل النوم بطمأنينة، سعادة ما تأخذني حتى نمت.

(٣)

كنت أفكر في حكاية صديقي وأقول لنفسي: ثمة شيء ناقص، لا توجد سعادة مجانية، من المؤكد أن لها سعرًا، من المستحيل أن تكون السعادة بهذه البساطة، هذا ليس عدلًا.

قطع الصديق حبل أفكاري قائلًا:

ـ استمرت التجربة عامًا، عندما أتحدث عن نفسي خلال هذه الفترة أشعر كأنني أتحدث عن شخص آخر، شخص يقدم معظم الوقت أفكارًا وحلولًا عبقرية، لكنه يقدم حججًا أكثر عبقرية للهروب من تنفيذها. شخص في مكانة أقل بين أقرانه، وهذا لا يزعجه لأنه في كل حوار له مع الآخرين يقدم نفسه باعتباره مظلومًا، في الحقيقة هو متأخر لأنه يكره العمل أو يكره الالتزام عمومًا. شخص كثير المجادلة، وقادر على إقناعك بالأمور ونقيضها، ويتفلسف كثيرًا في

أمور تافهة لا يتوقف عندها الشخص المتيقظ لكنه يشعر بالنشوة وهو ضائع بينها.
شخص شديد الحساسية، ماهر في التسامح المجاني، متهور في حماقاته، لكنه يبدو جبانًا في بعض الأحيان، يخاف من أشياء تافهة يصورها له الحشيش رعبًا حقيقيًّا.
شخص صنع ثغرة في حياته ولا يعرف سبيلًا لسدها سوى أن يشعل سيجارة حتى تستقيم الأمور، شخص أصبحت علاقته بالحياة معقدة، لديه شهية للحياة لكن لا طاقة، أو لديه الطاقة ولكن لا شهية.
شخص عندما يسأل نفسه أين أصدقاؤك لا يعرف سوى إجابة واحدة: أينما أُشعل الحشيش يوجد الأصدقاء.
أذكر يومًا قادتني الصدفة للوقوف أمام مرآة مشروخة فرأيت شخصين: واحدًا أعرفه، والآخر يدعي أنه يعرفني، كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أختبر فيها كل هذه الكآبة غير المفهومة.

(٤)

قلت لنفسي: بالعكس هي مفهومة، ربما يجلب التدخين الجماعي حالة من الضحك، والسبب «اللمة نفسها»، لكن العزف المنفرد مأساة لأنه بالتدريج يجعلك تسترخي حتى تقتحم الغلالة الرقيقة التي تحيط بتجربة الحياة كلها.

تلك الغلالة هي رحمة كبيرة، موجودة لكي تعينك على الاستمرار بجدية وإخلاص في ممارسة أمر لا تفهمه.

العزف المنفرد يجعلك تحطم تلك الغلالة فتنظر حولك فلا ترى إلا مأساة.

(٥)

كانت أغنية محمد فؤاد تسرق انتباهي كاملًا كل قليل، أمنح الكلمات بعض التركيز، ثم تأسرني نبرة فؤاد نفسه، كان يدهشني أن نبرة غنائه بها مزيج من شعورين متناقضين: الأسى، والفخر. يزعجه تورطه في قصة حب غير مريحة لكنه فخور بكونه «قادر يكمل من غيرك طريقه وحياته». أدهشني أن هذه النبرة كانت هي نفسها نبرة صديقي وهو يحكي عن تجربته.

سألته:

ـ ألم تجرب أن تتوقف؟

قال:

ـ توقفت ثلاث مرات ثم عدت من جديد. في المرَّة الأولى كنت بصدد موعد عمل، دخنت سيجارة لأحصل على بعض الهدوء الذي قد يساعدني في صياغة فكرة مشروع يمكن بيعه لإحدى الشركات. كان هناك زحام في الأفكار، ولم أكن مستعدًّا لهذه الفرصة، دخنت

سيجارة، ثم أمسكت القلم وكتبت ثلاث ورقات كنت أعتقد أنها ستبهر الجميع.

جلست أمامهم أعرض الفكرة، ومع نهاية الورقة الثانية ـ وكنت قد أفقت تمامًا ـ بدأت أشعر أن ما أحكيه سخيف، مترهل، غير واقعي. أنا أعرض فكرة لا معنى لها. تأكد شعوري هذا عندما أنهيت كلامي فسألني أحد الموجودين إن كنت قد «خلصت خلاص؟»، كانت صيغة السؤال مهينة، تأكدت الإهانة عندما وجدت بقية الموجودين يشيحون بوجوههم بعيدًا، أحدهم بدأ يعبث في هاتفه، وأحدهم سألني إن كنت في حاجة إلى بعض القهوة، أما السائل فقد كانت ساقه تهتز باستهتار فوق ساقه الأخرى.

خلصت.. لكنني لا أحب ما قلته، قطعت إجابتي الطريق على إهانة جديدة محتملة، وإن كانت خيبة الأمل بادية في عيون كل الحاضرين.

جلست في سيارتي أفكر ما الذي فعلته بنفسي، وكيف أضعت إلى جانب الفرصة قدرًا من حماس شخص ما لي، أيًّا كان مَن هو، هناك شخص ما بات يشعر أنني خدعة.

بعد شهر من التوقف لا أتذكر لماذا عدت!

في المرَّة الثانية استيقظت على صوت طرق الباب، كان البوَّاب يطلب مني أن أصطحب مفاتيح سيارتي وأنزل إلى الجراج لأن أحد الجيران في انتظاري، في الجراج وجدت

الجار يقف إلى جوار سيارتي، كانت الأبواب والنوافذ مفتوحة، قال الجار إنه شاهدها على هذا الوضع ليلًا واعتقد أنني في مكان ما قريب، لكن مع بداية اليوم كان واضحًا أنني قد نسيت سيارتي على هذا الوضع، الأمر الذي لا يفسره شيء سوى أنني كنت مسطولًا.

كانت نظرة الجار لي قاسية لا تخلو من خيبة أمل، لم أستطع أن أقدم تفسيرًا، لم أقدر حتى أن أكذب.

توقفت، ثم تُوفِّي صديق في حادث سيارة فانهارت مقاومتي.

في المرَّة الثالثة، طلبت مني فتاة أحبها أن نجمد ما بيننا لفترة، قالت إنها تشعر بعدم الراحة، وتحتاج إلى بعض الوقت حتى تتخذ قرارًا نهائيًّا بخصوص مصير علاقتنا، استسلمت لرغبتها وسألتها: «متى يمكنني أن أعاود الاتصال بكِ؟»، قالت: «لما تفوق».

توقفت فورًا.

أثناء التوقف تأملت النقطة التي أقف عندها، اكتشفت أنني أدور في دائرة مفرغة، خلال عام هو عمر علاقتي بالمخدر انتشيت كثيرًا، لكنني في الوقت نفسه أضعت فرصة ما، وثقة جار أحبه، وفتاة لن تتكرر! فكرت أن هذا وضع لا يشبهني، شعرت بالضيق، فعدت إلى المخدر للمساعدة في تجاوز الموقف، بالضبط كشخص قرر أن يشعل سيجارة تساعده على التفكير في قرار الإقلاع عن التدخين.

ظللت على هذه الحال حتى الليلة التي فقدت فيها الوعي بقسوة، وعندما استعدته في المستشفى قررت ألا أفقده أبدًا مرة أخرى!

قلت له:

ـ أشكرك لأنك أكدت لي صحة فكرتي.

قال:

ـ أي فكرة؟

قلت له:

ـ لا توجد سعادة مجانية!

(٦)

توقف المطر، كنت أطل خارج النافذة، وأفكر أنه كان يلزم بعض القسوة حتى يخرج صديقي من الدائرة المغلقة التي وجد نفسه فيها.

تلك القسوة التي تجعلك تعيد تقييم أخطائك الصغيرة.

أنا أيضًا في حياتي أخطاء صغيرة لم أقلع عنها إلا بشبه مصيبة.

هناك دائمًا شخص يقف عند الهاوية، وعندما أقترب أنا من السقوط يرفع هو ذراعه ثم يصفعني بقوة، فأهرول بعيدًا، بينما أهرول أسأله:

ـ ولماذا تركتني أصل إلى هذه النقطة؟

فيقول:

ـ لكي لا تعود أبدًا.

(٧)

توقف صديقي عن الكلام، ففرض محمد فؤاد سيطرته على المكان.

وإن بان في عنيا شوق

سيبيني م النار أدوق

لاحظت أن صديقي يهم بالكلام ثم يتراجع.

قلت له:

ـ طيب.. وإن بان في عنيا شوق؟

ضحك ثم قال:

ـ ربما أفتقد بعض اللحظات الهادئة، لكنني أعرف أنها كانت باهظة الثمن، لذلك لا أتمنى أن تعود أبدًا! «وإن بان في عنيا شوق» فكل ما أتمناه أن أعود إلى تلك الأيام فقط لأعرف أين استقرت العلبة المعدن الكوتاريللي.

نور العين

عمرو دياب

كلمات: أحمد شتا

ألحان: ناصر المزداوي

توزيع: حميد الشاعري

يحدث أحيانًا أن يقع الواحد من نفسه، يفقد فجأة كل ما يعرفه من أهداف أو أحلام، أو ربما يسير بداخل واحد منها بلا وعي، يسقط عن الواحد إحساسه بالزمن، ربما من فرط الرتابة أو فرط الإثارة، تسيطر ميكانيكية ما على طريقة حياته، فهو يتحرك بالفعل، لكن جسده فقط هو الذي يتحرك، بينما لا توجد بقعة نور واحدة في الروح أو الوعي.

تهجم هذه اللحظة عليك دون أن تدري، لن تعرف أنك كنت تسير فاقد الوعي إلا مع لحظة النهاية، عندما يحدث ما يجعلك تستفيق، تعود إلى روحك فتعرف أنك كنت بعيدًا، هناك من يغادر

لحظات اللاوعي هذه بصدمة، وهناك من يودعها على باب فرحة مفاجئة، هناك من يحتاج إلى جلسة كهرباء أو ما يشبهها، لكن في كل الأحوال عند عودتك ستسأل نفسك كثيرًا: أين كنت؟ وكيف انقضت تلك الفترة وأنت منوم؟ ستفكر كثيرًا، لكن لحظة الإفاقة ستمحو كل ما سبق، وستجعلك تمسك بطوق نجاة ألقته إليك سفينة لم تكن تبحث عنك.

وحدها الموسيقى كانت تفعل ذلك معي.

كل ما أذكره أنني كنت أسير في شارع لم تطأه قدماي من قبل، أحمل ملابسي داخل حقيبة بلاستيكية سوداء باتجاه المكوجي الذي أعرفه، شاب مخلص للعزوبية ولعمله، صار المكوجي صديقه، إذا غاب الشاب يمر به المكوجي يسأله:

- أين الملابس المتسخة؟

كنت أجمعها له في ثوانٍ، وأعيد عليه قائمة المحظورات: «بلاش تكوي البنطلون وتعمله سيف»، «اكوي ياقات القمصان بالطول لا بالعرض»، «هذا التيشيرت تحديدًا غالي الثمن فلا ترهقه بالماء الساخن حتى لا يفقد قوامه».

لم يقاطعني مرَّة أثناء إلقاء التعليمات، ولم يحدث أن خالفها.

على هامش هذا اللقاء الروتيني المتكرر مرَّة أسبوعيًّا، كنت أتلقى تعليمات مماثلة عن ضرورة الالتزام بموعد العمل، وأهمية حضور الاجتماعات، وحتمية تسليم الموضوعات الصحفية في موعدها.

دوامة تحيط بكل خطوة في طريق صار بعد النجاح السريع مملًّا: تصحو، تذهب إلى عملك، تنهي المطلوب منك، تراه منشورًا، تتلقى التهنئة، ثم تعود للخطوات نفسها من الأول.

لم يظهر المكوجي هذا الأسبوع، عرفت ذلك عندما لم أجد ما أخرج به لموعد مهم، كل ملابسي ملقاة في أحد أركان الغرفة وقد انتهت صلاحيتها للاستخدام هذا الأسبوع. تذكرت وصية قديمة للأم بأنه لا يصح أن يخرج الواحد إلى الشارع مرتديًا ملابس النوم، لكن لم يكن هناك بديل.

وقفت أمام محل المكوجي أتأمل الورطة، المحل مغلق على غير عادته، البقال يخبرني أن المكوجي سافر إلى العمرة. تذكرت أنه سبق أن أخبرني بهذه المعلومة. تذكرت أيضًا أنه مر بي قبل يومين في موعد مبكر جدًّا، طرق الباب ورأيته من العين السحرية، وكنت متعبًا لدرجة لا تساعدني على جمع الملابس المتسخة وتسليمها إليه، لم أفتح له حتى لأعتذر طالبًا فرصة أخرى، لم يقصر الرجل لكنني فعلت.

سألت البقال عن البديل، فوصف لي محلًّا آخر يبعد شارعين عن هنا.

في الطريق إليه كنت أسير بنصف وعي، أسير كشخص غير مهتم، بلا شغف، يضع رأسه في الأرض خوفًا من أن يصادفه شخص يعرفه فيراه بملابس النوم، حتى وصلت إلى الشارع المطلوب.

كان محل المكوجي الجديد مفتوحًا، وكان يجلس أمامه شاب أخبرني أن أنتظر قليلًا لأن عم سميح يصلي المغرب، وهو يحرس المحل. سحب الشاب كرسيًّا قصيرًا بلا مسند ووضعه إلى جواره طالبًا مني أن أجلس. قلت له:

ـ أنا كده كويس.

لا توجد نسمة هواء واحدة في المكان. الشارع واسع على غير عادة شوارع فيصل الجانبية. لم أمر من هنا قبل هذا اليوم، عادة تسحرني اكتشافات من هذه النوعية، لكنني لم أهتم.

أقف أتأمل قفا الشاب العريض، وسيجارته التي يدخنها بمزاج رائق، أفكر ماذا كنت سأعمل لو لم أتورط في مهنة الصحافة، أقول لنفسي مش مهم، ثم تضيق نفسي بكل شيء فجأة، ضيق زيادة عن اللزوم، ضجر من وقفتي وملابس النوم والتدين الذي هبط على مكوجية المنطقة فجأة: واحد في عمرة وواحد يصلي في المسجد، وقلة الأكسجين في المكان، والصحافة، والحياة في شارع جانبي في فيصل، وأيام تحتاج إلى مكسبات طعم ورائحة.

كانت هناك سيارة صغيرة تدخل الشارع، بها سماعات أكبر من حجم موتورها، يقودها شاب وإلى جواره آخر ويضحكان، عندما اقتربا قليلًا من الشاب الجالس أمام محل عم سميح كان باديًا أنهم أصدقاء، قبل أن يصل إليه قائد العربة قرر أن يعلي صوت الكاسيت.

كانت أغنية جديدة وقتها في بدايتها، عرفتها من خبطات الإيقاع المميز لها: «تاك.. تاك.. تاك.. تراك تاك». كان قائد السيارة يقترب منا وهو يضحك، كانت ضحكته معدية، توقف أمامنا وأخذ يغني مع الكاسيت: «حبيبي حبيبي يا نور العين». فجأة سحب الشاب الجالس أمام المحل الكرسي القصير الذي رفضت أن أجلس عليه ورفعه في الهواء محولًا إياه إلى دف على طريقة عمرو دياب في كليب الأغنية، وأخذ يعزف عليه بحماس جملة الإيقاع المميزة للأغنية: «تاك.. تاك.. تاك.. تراك تاك».

قرر سائق السيارة أن يرفع الصوت أكثر، فاندمج الشاب أكثر في العزف على آلة إيقاعه الجديدة. سرى الإيقاع في الشارع كله، كل من يمر يتأمل المشهد والأغنية وعازف الإيقاع المتحمس وشابًّا يقف يمسك كيسًا بلاستيكيًّا أسود يرتدي بنطلون بيجامة وتيشيرتًا مكتوبًا عليه: «لا للإرهاب».

انتهت الغنوة بضحكة واسعة وسلام على السريع بين قائد السيارة والشاب دون أن يتحرك أحدهما في اتجاه الآخر ولو خطوة. اقتنصا معًا لحظة فرحة حملتها الصدفة، وأخلصا لها كما يجب، ثم انصرفت السيارة على مهلها بينما الشاب يحول الدف من جديد إلى كرسي ويضعه إلى جواره مكررًا عرضه بالجلوس فجلست هذه المرَّة. كان الشاب يدعوني لسيجارة من علبته بينما أنا أفكر:

أين كنت قبل هذه اللحظة؟

لماذا سافر عم شوقي إلى العمرة؟

ولماذا تأخر عم سميح في الصلاة؟

ولماذا وقعت فجأة في غرام «حبيبي يا نور العين» وأنا الذي ملأت الدنيا ضجيجًا بكونها نهاية عمرو دياب؟

لماذا لا زلت أشعر بطرقات الشاب إياه المرحة على المقعد الصغير؟ لماذا لا زلت أشعر بها ترن أسفلي؟

من أين جاءت تلك السيارة الصغيرة وإلى أين ذهبت؟

ومن أين تأتي كل تلك السعادة؟

أشعر تحت عيني بثقل جفون من استيقظ لتوه من نوم عميق.

والأغنية تعيد نفسها بضراوة داخل عقلي.

وظهرت في روحي أفكار للحياة كنت قد نسيتها.

تحرك الهواء بينما أسحب سيجارة من علبة الشاب، فلمحت ابتسامة على وجهه، مددت يدي مصافحًا قائلًا:

ـ اسمي عمر.

ضحك الشاب قائلًا:

ـ وانا كمان.

إهداء

إلى ليلى عمر

إذاعة الأغاني

تستمع في هذا الكتاب إلى:

الكون كله بيدور .. محمد منير

كلمات: عبد الرحيم منصور ألحان: حسين جاسر

صافيني مرة .. عبد الحليم حافظ

كلمات: سمير محجوب ألحان: محمد الموجي

راحوا الحبايب .. أحمد عدوية

كلمات: حسن أبو عتمان ألحان: حسن أبو السعود

بختة .. الشاب خالد

كلمات وألحان: تراث جزائري

نور العين .. عمرو دياب

كلمات: أحمد شتا ألحان: ناصر المزداوي

أغدًا ألقاك .. أم كلثوم

كلمات: الهادي آدم ألحان: محمد عبد الوهاب




ISBN 9789776467392




الكرمة